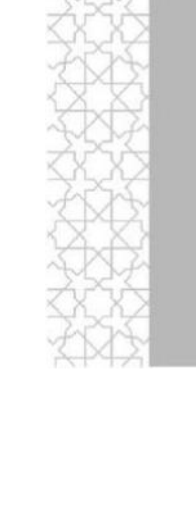


منهج ابن القيم في دراسة الأخلاق
من خلال كتابه: مدارج السالكين

د. فهد بن محمد بن عبد الله الخويطر

قسم الثقافة الإسلامية – كلية الشريعة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



منهج ابن القيم في دراسة الأخلاق من خلال كتابه: مدارج السالكين

د. فهد بن محمد بن عبد الله الخويطر

قسم الثقافة الإسلامية – كلية الشريعة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تاريخ تقديم البحث: ٢٣/ ١٠/ ١٤٤٣ هـ   تاريخ قبول البحث: ١٦/ ١١/ ١٤٤٣ هـ

ملخص الدراسة:

إنَّ مِن أكمل وأوسع كُتُب الإمام ابن القيِّم التي تناول فيها مبحثَ الأخلاق وما يُهذِّبها في النفْس البشرية هو كتابه المشهور "مدارج السالكين بيْن منازل إيَّاك نعبُد وإيَّاك نستعين"؛ حيثُ جمَعَ فيه أقواله في مبحث الأخلاق التي تفرَّقت في بطون كتُبه، ويُعَدُّ ابن القيِّم صاحبَ منهجَ مُحكَم في تأصيل مباحث عِلم الأخلاق والقِيَم.

وقد عُنِيَ هذا البحثُ ببيان منهج ابن القيِّم في دراسة الأخلاق مِن خلال كتابه "مدارج السالكين"؛ إذ يظهَر منهجُ ابن القيِّم جليًّا في كتابه من خلال دراسة الآتي:

التعريف بمفهوم الأخلاق في اللُّغة والاصطلاح، وهل هي جِبليَّة أم مُكتسَبة، وبيان منهجه في: بيان أهميَّة الأخلاق، وبيان مكانة الأخلاق من الدِّين، والتأصيل الشرعي للأخلاق، وتصنيف مجالات الأخلاق، وبيان أصول الأخلاق الحَسَنة والمذمومة، وبيان الأخلاق الحيوانية، وبيان علاقة النفْس بالأخلاق، وأهميَّة تهذيبها ومعالجة النفوس وترويضها؛ لترتقيَ بالأخلاق من السيِّئ إلى الحسَن، ومِن الحسَن إلى الأحسن، واستقراء كلام أرباب التصوُّف المحمود في هذا الشأن، وتصنيف الناس في طرُقهم في معالجة الأخلاق، وبيان الطرق الصحيحة من ذلك، وطريقة التعامُل مع أذَى الخَلْق.

الكلمات المفتاحية: ابن القيم، ابن قيم الجوزية، الأخلاق، سلوك.

Ibn al-Qayyim’s methodology in the Study of Morals through his Book “Madarij al-Salikin”

Dr. Fahad Mohammed Abdullah Al-Khowaiter
Department Islamic Culture – Faculty Sharia
Imam Muhammad Bin Saud Islamic university

Abstract:

“Madarij al-Salikin Byna Manazil Iyyak Na'bud Wa Iyyak Nasta'ien” (Ranks of The Divine Seekers) is one of Ibn al-Qayyim’s most extensive and detailed books about the study of morals and the reformation of morals through self-discipline. In this landmark book, Ibn al-Qayyim brought together his moral theory that was dispersed in his books as Ibn al-Qayyim has a systematic methodology in laying the conceptual framework for the subjects of the study of morals and values.

This study focused on the elaboration of Ibn al-Qayyim’s methodology in studying morals through his book ”Madarij al-Salikin” where his methodology is clearly displayed. The study covers the following:

Introducing the linguistic and Islamic definition of morals, whether it is inherited or acquired, and the presentation of Ibn al-Qayyim’s methodology in :

Description of the significance of morals, explanation of the importance of morals in religion; the Islamic conceptualization of morals; the classification of moral aspects; outlining the sources of positive and negative moral traits; indicating animal ethics; description of the relationship between the sole and morals; the importance of moral reformation and self-discipline and control to refine morals and move up from bad to better, and from better to best: Extrapolation of the arguments of the renowned mystics in this regard; and the ranks of individuals in their ways of seeking morals; explaining the right way to do this, and how to deal with harm by others.

key words: Ibn al-Qayyim, Ethics, ethics, morals, behavior.

المقدمة

جاء الإسلام مُعظِّمًا لموضوع الأخلاق بشتَّى صُوَره وأحْواله، وجاء هذا على لسان الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه: «**إنَّما بُعِثتُ لأُتمِّمَ مَكارمَ —وفي لفظ: صالِحَ— الأخلاقِ**»[1]، وما هذا إلَّا لأهميَّة موضوعِ الأخلاق، وعُلوِّ مكانتها.

وقد توالتْ جهودُ العلماء لدراسة الأخلاق والتأصيل لها بطرُق شتى، سواءٌ في كتُب الرقائق والسلوك، أو كتُب الآداب الشرعية، حتى في كتُب الفِقه والعقيدة.

ومِن هؤلاء العلماء الإمامُ ابن القيّم -رحمه الله تعالى- الذي اعْتَنى بموضوع الأخلاق والسلوك وتهذيبها في النفْس البشرية، حتى كاد يُعرَف بهذا وَحدَه من سائر العلوم التي يؤلِّفُ فيها.

وكان مِن أكمَل وأوسَع كُتُبه التي تناوَلَ فيها الحديثَ عن الأخلاق وتهذيبها في النفْس البشرية كتابُه المشهورُ "مدارج السالكين"، ومن هنا جاءت فكرةُ البحث باستقراء منهجه في دراسة الأخلاق في هذا الكِتاب؛ لكونِه مهمًّا لدى كثيرٍ من الباحثين، والعُمدةَ في هذا الباب، وبالنسبة لكتُب ابن القيِّم يُعَدُّ واسطةَ العقْد فيها، وخُصوصًا في عِلم الأخلاق والسُّلوك.

---

(١) أخرَجه أحمد في المسند، (١٤/ ٥١٣)، رقم: (٨٩٥٢)، والبيهقي في السُّنن الكبرى (١٠/ ٣٢٣)، رقم: (٢٠٧٨٢)، كتاب الشهادات، باب: بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، عن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، وصحَّحه الألباني في: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١١٢). وسيأتي بروايةٍ أُخرى في كلام ابن القيِّم، ص٣٩ من هذا البحث.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. أهميةُ موضوع الأخلاق والتأصيل لها ودِراسة أساليب طرْحها.

٢. تخصُّصُ الإمام ابن القيِّم في مجال الأخلاق والسُّلوك، وضرورة الاستفادة مِن نِتاجه العِلمي في ذلك.

٣. مَركزيَّةُ كتاب "مدارج السالكين" من بيْن مؤلَّفات الإمام ابن القيِّم وسائرِ كتُب الأخلاق والسلوك، وتأثيرُه في كثيرٍ ممَّن أتَوْا بعدَه.

٤. دراسةُ منهج ابن القيِّم في طرْحه للأخلاق والسلوك، ومحاولة ترتيب ما ذكَرَه باعتباره منهجًا علميًّا مؤصِّلًا للأخلاق.

الدِّراسات السابقة:

لم أجِدْ فيما اطَّلعتُ عليه من الدراسات السابقة بحثًا عن منهج ابن القيِّم في دراسة الأخلاق، إلَّا رسالةً بعنوان: (المنهج الخُلُقي عند ابن قيِّم الجوزية) للباحث صابر محمود فرج الله في جامعة القاهرة، كلية دار العلوم في تخصُّص الفلسفة الإسلامية عام ١٩٩١م، بإشراف د. السيد رزق الحجر، لكن الرسالة تَنْحى المِنْحى الفلسفي في دراسة المنهج الخُلُقي عند ابن القيِّم، حيث يُقارن بيْن رأي ابن القيِّم في مسائل خُلُقية بيْنه وبيْن سقراط وأفلاطون وأرسطو، وغيرهم من أعلام الفلسفة اليونانية، أو يُقارن بيْن رأيه ورأي علماء وفلاسفة الحضارة الإسلامية كابن حزمٍ، والغزاليِّ، والمعتزِلة، والجَبريَّة، والصوفيَّة وغيرهم.

ولذا؛ فهذا البحثُ لا يَنتهجُ المنهجَ المقارَنَ، ولا يركِّز على المباحث الفلسفية للأخلاق عند ابن القيِّم، إنما يركِّز على منهج ابن القيِّم في دراسته وعَرْضه للأخلاق من خلال كتابه "مدارج السالكين".

وما عدَا هذه الرسالة فغايةُ ما وقفتُ عليه:

١. دراساتٌ أو مقالاتٌ ناقَشَتْ موضوع الأخلاق عمومًا في جانب التأصيل لها، ونحو ذلك.

٢. مقالاتٌ جمَعتْ مقولاتٍ مفرَّقةً لابن القيِّم عن الأخلاق.

والفرق بيْنها وبيْن موضوع البحث:

١. **الحدود الموضوعية**: فالبحثُ يتناولُ موضوعًا محدَّدًا، ألَا وهو الأخلاقُ عند ابن القيِّم.

٢. **الإضافة العِلمية**: حيث لم تُجمَع الأفكارُ والإضافاتُ العِلميةُ في موضوع الأخلاق عند ابن القيِّم، وإنَّما بُحثت مُؤلَّفاتُه بشكلٍ عامٍّ.

منهج البحث:

١. **المنهج الاستقرائي الوصفي**: المبنيُّ على استقراء موضوع "الأخلاق" وتتبُّعِه عند ابن القيِّم في كتاب "مدارج السالكين".

٢. **المنهج التحليلي**: عبرَ تحليل مَضامين كتاب "مدارج السالكين" فيما يخُصُّ "الأخلاق".

تقسيمات البحث:

اشتملَتْ خُطَّة البحث على: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

المقدِّمة: تشمَل أهميةَ البحث وأهدافَه، والدراساتِ السابقةَ، ومنهجَ البحث.

التمهيد: ويشملُ التعريفَ بابن القيِّم، وكتابه "مدارج السالكين"، والتعريفَ بمفهوم الأخلاق.

المبحث الأول: منهج ابن القيِّم في بيان أهمية الأخلاق وتأصيل مكانتها

من الدين، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: منهج ابن القيِّم في بيان أهمية الأخلاق.

المطلب الثاني: منهج ابن القيِّم في بيان مكانة الأخلاق من الدِّين.

المطلب الثالث: منهج ابن القيِّم في التأصيل الشرعي للأخلاق.

المبحث الثاني: منهج ابن القيِّم في تصنيف مجالات الأخلاق وبيان أصولها وأنواعها، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: منهج ابن القيِّم في تصنيف مجالات الأخلاق.

المطلب الثاني: منهج ابن القيِّم في بيان أصول الأخلاق الحسنة والمذمومة.

المطلب الثالث: منهج ابن القيِّم في بيان الأخلاق الحيوانية.

المبحث الثالث: منهج ابن القيِّم في بيان علاقة النفْس بالأخلاق وطرق تهذيبها، وبيان طُرُق التعامُل مع أخلاق الناس، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: منهج ابن القيِّم في بيان علاقة النفْس بالأخلاق وأهمية تهذيبها.

المطلب الثاني: منهج ابن القيِّم في تصنيف الناس في طرُقهم في معالجة الأخلاق وبيان الطريقة الصحيحة.

المطلب الثالث: منهج ابن القيِّم في طريقة التعامُل مع أذى الخَلْق.

خاتمة.

المراجع.

الفهارس.

التمهيد

التعريف بابن القيّم:

هو الإمامُ محمَّدُ بنُ أبي بكرِ بنِ أيوبَ بنِ سعدِ بنِ حُرَيْزٍ الزُّرَعيُّ، ثم الدمشقيُّ الفقيهُ الأُصوليُّ، المفسِّرُ النَّحْويُّ، العارفُ، شمسُ الدينِ أبو عبدِ اللهِ ابنُ قيِّمِ الجَوْزيَّةِ، وُلِدَ سنةَ إحْدى وتسعين وستِّ مائة.

فقِهَ في المذهب الحنبلي، وبرَع وأفتى، ولازَم الشيخَ تقيَّ الدين وأخذَ عنه، وتفنَّن في علوم شتَّى كالتفسير، والعقيدة، والفقه، وعلوم العربية، وعلم السلوك والرَّقائق.

يقول ابنُ كثيرٍ: "وبالجُملة كان قليلَ النظير، بل عديمَ النظير في مجموعه، وأموره، وأحواله"(١).

يقول ابن رجب: "وكان -رحمه الله- ذا عبادة وتهجُّد، وطول صلاة إلى الغاية القُصوى، وتألُّه ولَهَج بالذِّكر...، وقد امتُحِنَ وأُوذِيَ مرَّاتٍ، وحُبِسَ مع الشيخ تقي الدِّين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفرِدًا عنه، ولم يُفرَج عنه إلَّا بعدَ موت الشيخ تقي الدين ابن تيميَّة.

وكان في مدَّة حَبْسه مشتغِلًا بتلاوة القرآن بالتدَبُّر والتفَكُّر، ففُتِح عليه من ذلك خيرٌ كثيرٌ...، وتسلَّط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارِف، والدُّخول في غوامِضهم، وتصانيفُه ممتلئةٌ بذلك، وحجَّ مرَّاتٍ كثيرةً، وجاوَرَ بـ"مكة"، وكان أهل "مكة" يذكُرون عنه من شِدَّة العبادة، وكثرة الطواف أمرًا يُتَعَجَّب منه"(٢).

تُوفِّيَ -رحمه الله- وقتَ عشاءِ الآخِرة ليلةَ الخميس في الثالث والعشرين من

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٨/٥٢٤).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب (٥/١٧٢).

رجب، سنةَ إحدى وخمسين وسبع مائة، وصُلِّيَ عليه من الغد بالجامع عَقيبَ الظهر، ودُفِنَ بمقبرة الباب الصغير[1].

كُتبُه:

صنَّف تصانيفَ كثيرةً جدًّا في أنواع العلم، وكان شديدَ المحبَّة للعِلم، وكتابته، ومطالعته، وتصنيفه، واقتناء الكتب، واقْتَنى من الكتب ما لم يحصلْ لغيره، وعددُ كتبه الثابتة عنه (٣٨) مؤلَّفًا بعضُها يقَعُ في مجلَّداتٍ كبارٍ، من أشهرها:

١. اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية.

٢. إعلام الموَقِّعين عن رب العالَمين.

٣. بدائع الفوائد.

٤. تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مُشكلاته.

٥. جلاء الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام وبيان أحاديثها وعللها.

٦. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

٧. الداء والدواء.

٨. روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

٩. زاد المعاد في هدي خير العباد.

١٠. سِفر الهِجرتين وباب السعادتين.

١١. الصواعق المنزَّلة على الجهمية والمعطِّلة.

---

(١) للاستزادة انظر: ابن قيِّم الجوزية: حياته آثاره موارده، لبكر أبو زيد، والجامع لسِيرة ابن القيم خلال سبعة قرون، لعلي العمران.

١٢. الطرق الحُكمية.

١٣. عُدَّة الصابرين.

١٤. القصيدة النونية.

١٥. الكَلِم الطيِّب والعمل الصالح.

١٦. مدارج السالكين، وهو الكتابُ موضوع هذا البحث.

١٧. مفتاح دار السعادة.

التعريف بكتابه "مدارج السالكين":

يُعَدُّ كتابُ "مدارج السالكين" مِن أشهر كتُب ابن القيِّم المعْنيَّة بالرقائق والسلوك، والكتاب عِبارةٌ عن شرْح لكتاب الإمام أبي إسماعيل الهَرَوي (منازل السائرين)؛ دعاه لذلك غُموضُ عبارات الهَرَوي أحيانًا، واستغلالها من بعض المبتدِعة من الاتِّحادية وغيرهم، ولكن في الوقت نفْسه لم يَتقيَّد بطريقة شرح المتون المعروفة؛ فشخصيَّةُ "المؤلِّف بارزةٌ في جميع أبوابه وفصوله؛ فهو لم يَقتصرْ على شرح الكتاب، بل تعدَّاه إلى الاستدراك والاستطراد إلى أبحاث جليلة في موضوعات كثيرة من الزهد والتزكية والسلوك. وقد قدَّم لكثيرٍ من المنازل بكلامٍ مُستقِلّ من عنده في فُصولٍ هي أهمُّ من شرح كتاب الهروي، بحيث لو أُفرِدت ورُتِّبت لكانتْ من أنفسِ كتُب السلوك في ضوء الكتاب والسُّنة على منهج السَّلف"[١].

فطريقة الكتاب في الجملة أنه قسَّم الكتاب إلى منازل؛ يبدأ باسم المنزلة، ثم يضَع الآيةَ التي ذكَرها الهَرَوي في كِتابِه، ويُعلِّق عليها ومدى مناسبتها

(١) مدارج السالكين، لابن القيم –مقدمة المحقِّق– (١/ ٢٩).

لسياق المنزلة، ثم يذكُر درجاتِ الهَرَوي الثلاث المعتادة، ويُعلِّق عليها، ويَستدرِك عليها أحيانًا ويَنتقِدُها، ولكن كما ذُكِر لم يتقيَّد ابن القيِّم بالكتاب المشروح، وإنَّما قدَّم بمقدِّمات عن الفاتحة وأسرارها، وأطالَ في بعض المنازِل كالتوبة؛ مما يستحِقُّ أن يكون مستقِلًّا عنها، ويُقدِّم في بعض المنازل بمقدِّمات، ويَستطرِد فيها ممَّا لا عَلاقةَ له بكلام الهَرَوي.

حُقِّق الكِتابُ عدَّةَ تَحقيقاتٍ كتحقيق الشيخ محمد رشيد رضا، وتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي وغيرهم بثلاثة أجزاء، ثم حُقِّق بخَمس رسائل دكتوراه في جامعة القصيم بخمسة أجزاء، والجزء السادس فهارس، وصدرتْ من دار الصميعي، إلى أنْ حُقِّقَ ضمنَ مشروع الشيخ بكر أبو زيد بأربعة أجزاء بتحقيق د. علي العمران وآخَرين بأربعة أجزاء، وصدَر عن دار عطاءات العلم، وتُعَدُّ أجودَ النُّسَخ، وعليها اعتمدتُ.

التعريف بمفهوم الأخلاق:

الأخلاق لغةً:

قال ابن فارس: "الخاء واللام والقاف أصلان: أحدُهما تَقديرُ الشيء، والآخَرُ مُلامَسةُ الشيء. فأمَّا الأول فقولهم: خَلَقْتُ الأديمَ للسِّقاء، إذا قدَّرْتَه، قال:

لم يَحْشِم الخالقاتِ فَرْيتُها ... ولم يَغِض من نِطافها السَّرَبُ

وقال زهيرٌ:

ولأنتَ تَفْري ما خَلقْتَ وبعـ ... ـضُ القوم يخلُقُ ثم لا يَفري

ومن ذلك: الخُلُق وهي السَّجيَّةُ؛ لأنَّ صاحبه قد قُدِّر عليه"[1].

وقال ابنُ مَنظور: "الخُلُق: الخَليقةُ؛ أعني: الطبيعةَ، وفي التنزيل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[القلم: ٤]، والجمعُ: أخلاقٌ، لا يُكسَّرُ على غير ذلك.

والخُلْقُ والخُلُقُ: السَّجيَّةُ - يُقالُ: خالِصِ المؤمِنَ وخالِقِ الفاجرَ، وفي الحديث: «ما من شيءٍ يوضَعُ في الميزان أثقَلُ من حُسنِ الخُلقِ»[2].

والخُلُقُ: بضمِّ اللَّامِ وسُكونها، وهو الدِّينُ والطَّبعُ والسَّجيَّةُ، وحقيقتُه: أنه لصُورةِ الإنسان الباطنة، وهي نفْسُه وأوْصافُها ومعانيها المختصَّةُ بها، بمنزلة الخَلْق لصُورته الظاهرةِ وأوصافِها ومعانيها، ولهما أوصافٌ حسَنةٌ وقبيحةٌ، والثوابُ والعِقابُ يتعلَّقان بأوصاف الصُّورة الباطنة أكثرَ ممَّا يتعلَّقان بأوصافِ الصُّورة الظاهرة؛ ولهذا تكرَّرت الأحاديثُ في مدحِ حُسْن الخُلُق في غير موضِعٍ"[3].

وقال الفيروزآبادي: "الخُلقُ: بالضمِّ، وبضمَّتَين: السجيَّةُ والطَّبعُ، والمروءةُ، والدِّينُ"[4].

وبعد ذِكر هذه التعاريف اللُّغوية يُمكنُ: "تلخيصُ ثلاثة معانٍ بارزةٍ:

الأول: الخُلُقُ يدُلُّ على الصِّفات الطبيعية في خِلْقة الإنسان الفِطْريَّة على هيئةٍ مستقيمةٍ متناسِقةٍ.

والثاني: تدُلُّ الأخلاقُ أيضًا على الصفات التي اكتُسِبَت وأصبحتْ كأنها خُلِقت

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس (٢/٢١٣).

(٢) أخرَجه الترمذي في سننه (٤/ ٣٦٣)، رقم: (٢٠٠٣)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حُسن الخُلق، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عنه، وصحَّحه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩٩٧)، رقم: (٥٧١٨).

(٣) لسان العرب، لابن منظور (١٠/٨٦).

(٤) القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ص: ٨٨١).

مع طبيعته.

والثالث: أنَّ للأخلاق جانِبَين: جانبًا نفسيًّا باطنيًّا، وجانبًا سُلوكيًّا ظاهريًّا"(١).

الأخلاق اصطلاحًا:

عرَّفها أحدُ المتقدِّمين بأنَّها: "عِبارةٌ عن هيئة للنفْس راسخةٌ، تصدُر عنها الأفعالُ بسهولةٍ ويُسرٍ من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ ورَويَّةٍ، فإنْ كانت الهيئةُ بحيث تصدُرُ عنها الأفعالُ الجميلةُ عقلًا وشرعًا بسهولة، سُمِّيت الهيئة: خُلقًا حسنًا، وإنْ كان الصادرُ منها الأفعالَ القبيحةَ، سُمِّيت الهيئة: خُلقًا سيِّئًا"(٢).

وأمَّا المتأخِّرون، فقدْ عرَّفوا الأخلاقَ بأنَّها: "صفةٌ مستقرةٌ في النفْس – فِطريةٌ أو مُكتَسَبةٌ – ذاتُ آثار في السلوك محمودة أو مذمومة"(٣).

وعُرِّفت الأخلاقُ: بـ"مجموعةُ المبادئ والقواعد المنظِّمة للسُّلوك الإنساني التي يُحدِّدُها الوحيُ؛ لتنظيم حياة الإنسان، وتحديدِ علاقته بغيره على نحوٍ يُحقِّق الغايةَ من وجودِه في هذا العالَم على أكملِ وجه"(٤).

وعُرِّف عِلمُ الأخلاق في الاتجاه الإسلامي: بـ"هو عِلمُ الخير والشر والحُسن والقُبح، وهو واحدٌ من العلوم الإسلامية التي تقوم على مصادر المعرفة الإسلامية، منها: القرآن، والسُّنَّة، والمصادر التشريعيَّة الأخرى"(٥).

الأخلاق عند ابن القيِّم:

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية، لمقداد يالجن (ص: ٣٤).

(٢) التعريفات، للجرجاني (ص: ١٠١).

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن حسن حَبنَّكة (ص: ١٠).

(٤) التربية الأخلاقية الإسلامية، لمقداد يالجن (ص: ٦٩).

(٥) علم الأخلاق الإسلامية، لمقداد يالجن (ص: ٤٧).

لم يضَعْ تعريفًا محدَّدًا للأخلاق[1]، وإنَّما انشغَل في ذِكر صورها وأنواعها وأدلَّتها ونحو ذلك، ويُعبِّر عنها أحيانًا بالخُلق، وأحيانًا بالأخلاق، وأحيانًا بالأدَب، وأحيانًا يَذكُر متعلقَها ألَا وهو النفْس وترويضها.

ولذا؛ فلا يوجَد تعريفٌ محدَّدٌ للأخلاق أو الخُلق عند ابن القيِّم.

ويُناسب هنا ذِكرُ مسألة يَذكُرها أكثرُ مَن يتكلَّم في تعريف الأخلاق ومفهومها؛ ألَا وهي: هل الخُلقُ كَسْبيٌّ، أم جِبلِّيٌّ؟

قال ابن القيِّم: "فإن قلتَ: هل يمكن أن يقَع الخُلق كَسبيًّا، أو هو أمرٌ خارجٌ عن الكسب؟

قلتُ: يمكن أن يقَعَ كَسبيًّا بالتخلُّق والتكلُّف، حتى يصير له سجيَّة ومَلَكة، وقد قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأشجِّ عبدِ القَيسِ رَضيَ اللهُ عنه: «إنَّ فيكَ لخُلُقَينِ يُحبُّهما اللهُ: الحِلمُ، والأناةُ. فقال: أخُلُقينِ تخلَّقْتُ بهما، أم جبَلَني اللهُ عليهما؟ فقال: بل جبَلَكَ اللهُ عليهما، فقال: الحمدُ لله الذي جَبَلني على خُلُقينِ يُحبُّهما اللهُ ورسولُه»[2].

فدلَّ على أنَّ من الخُلق: ما هو طبيعةٌ وجِبلَّةٌ، وما هو مُكتَسَبٌ. وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول في دعاء الاستفتاحِ: «اللهمَّ اهْدِني لأحسَنِ الأخْلاقِ؛ لا يَهْدي لأحسَنِها إلَّا أنتَ، واصرِفْ عنِّي سيِّئَها؛ لا يصرِفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنتَ»[3]، فذكَرَ الكسْبَ والقدَرَ"[1].

---

(١) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، لعدد من المؤلفين (٦٣/١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٣٥٧)، كتاب الأدب، باب في قُبلة الرجل، رقم: (٥٢٢٥)، وأصله في صحيح مسلم (١/ ٤٨)، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، رقم: (١٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٣٥)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة =

المبحث الأول: منهج ابن القيِّم في بيان أهمية الأخلاق وتأصيل مكانتها من الدِّين

المطلب الأوَّل: منهج ابن القيِّم في بيان أهمية الأخلاق

نظرًا لكون الأخلاق ذاتَ أهميَّة كبيرة عند ابن القيِّم -فهي من أهمِّ موضوعات عِلم السلوك والتهذيب للنفوس عنده- لم يَكتفِ بإفْراد منزلةٍ مستقلةٍ للخُلق تبَعًا للهَرَوي صاحب المنازل، ولكنه مع ذلك لم يَقتصرْ على شرح كلام الهرَوَي، وإنما أَوْلى هذه المنزلة عِنايةً كبيرةً، وقدَّم لها بمقدِّمات، وأفاض فيها قبْلَ أنْ يَشرحَ كلامَ الهَرَوي، وهذا يؤكِّد مكانةَ الأخلاق عنده، فمِن منهجه في الأخلاق البحثُ في أهميَّتها، وبيانُ ذلك في القرآن والسُّنَّة.

بيان أهمية الخُلق من خلال خُلق النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

بدأ ابنُ القيِّم بتأصيل الخُلق ومكانته في الدِّين من خلال الحديث عن خُلق النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الوارد في القرآن فقال: "قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[القلم: ٤]"(٢).

وذَكَر وصْفَ عائشةَ -رضي الله عنها- عن خُلُقه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومدَى تطابُقه مع القرآن، كما "في الصَّحيحَينِ، أنَّ هشامَ بنَ حَكيم سأل عائشةَ -رضي الله عنها- عن خُلُق رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالت:

= الليل وقيامه، رقم: (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب رَضيَ اللهُ عنه.

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٤٦- ٤٧).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٢٤)، وسيأتي الحديث على تفسير الآية في المطلب الثاني: منهج ابن القيم في بيان مكانة الأخلاق من الدين، من هذا المبحث.

«كان خُلُقُه القُرآنَ»[1]، فقال: لقدْ هممتُ أنْ أقومَ ولا أسألَ شيئًا"[2].

وبيَّن آيةَ الأخلاق الجامعة، فقال: "وقد جمَعَ الله له مكارمَ الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفرُ بن محمَّد رَضيَ اللهُ عنهما: أمَر اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمكارمِ الأخلاق، وليس في القُرآن آيةٌ أجْمعَ لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذُكِر: أنَّه لَمَّا نزلتْ هذه الآية قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لجبريلَ: «ما هذا؟ قال: لا أدْري حتى أسألَ، ثُمَّ رجَع إليه، فقال: إن اللهَ يأمُرُكَ أن تصِلَ مَن قطعَكَ، وتُعطيَ مَن حرمَكَ، وتعفوَ عمَّن ظلمَكَ»"[3].

ثم فصَّلَ الكلامَ عن التطبيق العمَلي لهذا الآية في التعامُل مع الناس، لا سيَّما إذا كان شخصًا مُطاعًا بينهم[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥١٢، ٥١٣)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم: (٧٤٦)، ولفظه: أَنَّ سَعْدَ بْنَ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، أَرَادَ أَنْ يَغْزُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ... فَأَتَيْتُ عَلَى حَكِيمِ بْنِ أَفْلَحَ، فَاسْتَلْحَقْتُهُ إِلَيْهَا... فَقُلْتُ [سعد بن هشام]: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ».

وقد ذكَر ابن القيم رحمه الله أن الحديث في الصحيحن، وهو في صحيح مسلم فقط، وقد ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين (٤/ ١٦٤) على أنَّه من أفراد مُسلِم. وذكَر ابنُ القيم أيضًا هنا أن السائل هشام بن حكيم، والثابت في صحيح مسلم وغيره أنَّ السائل هو سعد بن هشام بن عامر، وليس هشام بن حكيم.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٢٤).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٢٤- ٢٥).

(٤) انظر: المرجع السابق (٣/ ٢٥- ٢٦)، حيثُ قال - رحمه الله - في هذا الموطن: "ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال؛ أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم. الثاني: أخذه منهم ما =

وذكَر وصَفَ خُلق النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّن كان قريبًا منه، وهو خادمُه أنسُ بن مالك رَضيَ اللهُ عنه، حيث قال: "«كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحسنَ النّاس خُلُقًا»[١]، وقال: «ما مَسِستُ ديباجًا ولا حريرًا ألْيَنَ من كفِّ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولا شَمِمْتُ رائحةً قطُّ أطيبَ من رائحةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولقدْ خدمْتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَشْرَ سِنينَ، فما قال لي قطُّ: أُفٍّ. ولا قال لشيء فعلتُه: لمَ فعلتَه؟ ولا لشيءٍ لم أفعَلْه: ألَا فعلْتَ كذا؟»[٢] متَّفق عليهما"[٣].

= يبذلونه مما عليهم من الطاعة. الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موالٍ، ومعادٍ له معارض. وعليه في كل واحد من هذه واجب؛ فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم. وينهاهم عن ضده، وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوَّعت له به أنفسهم، سماحة واختيارًا. ولا يحملهم على العنت والمشقة فيُفسدهم، وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم. وعدم مقابلتهم بالمِثْل والانتقام منهم لنفْسه. فقد قال الله تعالى لنبيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ".

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٤٥)، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يُولَد للرجل، برقم: (٦٢٠٣)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٥٧)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الجماعة في النافلة، والصلاة على حصير وخمرة وثوب، وغيرها من الطاهرات، رقم: (٦٥٩)، واللفظ لمسلم.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٠)، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، رقم: (٣٥٦١)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨١٤)، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولين مسه والتبرُّك بمسحه، رقم: (٢٣٣٠)، عن أنس بن مالك رَضيَ اللهُ عنه.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٢٧).

الأخلاق مرتبةٌ من مراتِبِ الحياة:

جعَل ابنُ القيِّم الأخلاقَ مَرْتبةً من مراتب الحياة التي ذكَرها في منزلة الحياة، فقال: "المرتبة السابعة من مراتب الحياة: حياة الأخلاق، والصِّفات المحمودة، التي هي حياةٌ راسخةٌ للموصوف بها؛ فهو لا يَتكلَّف الترقيَ في درجات الكمال، ولا يشُقُّ عليه؛ لاقتضاء أخلاقه وصِفاته لذلك، بحيث لو فارَقَه ذلك لفارَقَ ما هو مِن طبيعته وسجيَّته؛ فحياةُ مَن قد طُبِع على الحياء والعِفَّة والجُود والسخاء، والمروءة، والصِّدق، والوفاء ونحوها أتمُّ من حياة مَن يَقهر نفْسَه، ويُغالب طبعَه حتى يكون كذلك؛ فإنَّ هذا بمنزلة مَن تُعارضه أسبابُ الداءِ وهو يُعالجها ويقهَرُها بأضْدادها، وذلك بمنزلة مَن قد عوفيَ من ذلك"[1].

وبيَّن الارتباطَ الطَّرديَّ بينَ الحياة وبين الأخْلاق زيادةً ونقصًا، فقال: "وكلَّما كانت هذه الأخلاقُ في صاحبها أكمَلَ كانت حياتُه أقْوى وأتمَّ؛ ولهذا كان خُلقُ الحياء مُشتقًّا من الحياة اسمًا وحقيقةً، فأكمَلُ الناس حياةً أكملُهم حياءً، ونُقصانُ حياء المرء من نُقصان حياته؛ فإنَّ الرُّوح إذا ماتت لم تُحسَّ بما يُؤْلِمُها من القبائح، فلا تَستَحي منها، فإذا كانت صحيحةَ الحياة أحسَّت بذلك، فاستحْيَتْ منه، وكذلك سائرُ الأخلاق الفاضلة، والصِّفات الممدوحة تابعةٌ لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة، ولهذا كانت حياةُ الشجاع أكمَلَ من حياة الجبان، وحياةُ السَّخيِّ أكمَلَ من حياة البخيل، وحياةُ الفَطِن الذكي أكمَلَ من حياة الفَدْم

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٤/ ١٧١).

البَليد؛ ولهذا لَمَّا كان الأنبياءُ - صلواتُ الله وسلامُه عليهم - أكمَلَ الناس حياةً، حتى إن قوَّة حياتهم تمنَعُ الأرضَ أن تُبليَ أجسامَهم، كانوا أكمَلَ الناس في هذه الأخْلاق، ثم الأمثل فالأمثل من أتْباعهم.

فانظُر الآنَ إلى حياة ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾[القلم: ١٠ - ١٣]، وحياة جَوَاد شُجاع، بَرٍّ عادل عفيف محسِن، تجدُ الأول ميتًا بالنسبة إلى الثاني، ولله درُّ القائل:

وما للمَرءِ خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقطِ المتاعِ"[1]

***

(١) المرجع السابق (٤/ ١٧١- ١٧٢).

المطلب الثاني: منهج ابن القيّم في بيان مكانة الأخلاق من الدين

من منهج ابن القيّم أنه يُؤكّد في أكثرَ من موطنٍ على أنَّ الأخلاقَ ليستْ مجرَّدَ سلوك اجتماعي، وإنما هي جزءٌ من الدِّين، وركنٌ ركينٌ؛ فقد بيَّنَ مركزيَّتَها في الدين فقال: "فصل: الدِّينُ كلُّه خُلقٌ، فمَن زاد عليك في الخُلق؛ زادَ عليك في الدِّينِ"[١]؛ فبيَّنَ هنا أن الدِّين يُوازي الخُلقَ، وهذا يدُلُّ على عِظَم شأنه في الدِّين.

وقال في آخِر حديثه في مَشهَد الأسماء والصِّفات أحد مشاهد الخُلق في المعصية، فقال: "وهو سبحانه يحبُّ موجَبَ أسمائه وصفاته.

فهو عليمٌ يحبُّ كلَّ عليم، جَوَادٌ يحبُّ كلَّ جَوَادٍ، وِترٌ يحبُّ الوترَ، جميلٌ يحبُّ الجمالَ، عفُوٌّ يحبُّ العَفوَ وأهلَه، حَييٌّ يحبُّ الحياءَ وأهلَه، بَرٌّ يحبُّ الأبرار، شكورٌ يحبُّ الشاكرين، صَبورٌ يحبُّ الصابرين، حليمٌ يحبُّ أهلَ الحِلم، فلمحبَّته - سبحانه - للتوبة والمغفرة، والعفو والصَّفْح خلَقَ مَن يغفِر له، ويتوب عليه ويعفو عنه، وقدَّر عليه ما يَقتضي وقوعَ المكروه والمبغوض له؛ ليترتَّب عليه المحبوب له المرْضي له، فتوسُّطه كتوسُّط الأسباب المكروهة المفْضية إلى المحبوب"[٢].

وفي كلامه عن الورَع الذي هو عِبادةٌ محضةٌ؛ بيَّن ابن القيّم ارتباطَه بالأخلاق وارتباطَ الأخلاق به، فذكَر قولَ الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾[المدثر: ٤]، فذكَر جملةً من التفاسير إلى أنْ ذكَر تفسيرًا آخَرَ، فقال: "وقال الحسنُ والقُرَظيُّ: وخُلُقَكَ فحَسِّنْ.

وقال ابنُ سيرينَ وابنُ زَيدٍ: أَمَرَ بتطهير الثِّياب من النجاسات التي لا تجوزُ الصلاةُ معها؛ لأنَّ المشركين كانوا لا يتطهَّرون، ولا يُطهِّرون ثيابهم.

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٠).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٣٦).

وقال طاوس: وثيابَكَ فقَصِّرْ؛ لأن تقصيرَ الثياب طُهرةٌ لها.

والقولُ الأوَّل أصحُّ الأقوال.

ولا ريبَ أنَّ تطهيرها من النجاسات وتقصيرَها من جملة التطهير المأمور به؛ إذ به تمامُ **إصلاح الأعمال والأخلاق**؛ لأنَّ نجاسةَ الظاهر تورِثُ نجاسةَ الباطِن؛ ولذلك أُمِر القائمُ بيْن يدي الله ﷿ بإزالتها، والبُعد عنها"(١).

فبيَّن ارتباطَ الخُلق بالدِّين، وذَكَره تفسيرًا للآية عند بعضهم، إلى أنْ قال: "والمقصودُ أن الورَع يُطهِّر دنَسَ القلب ونجاسته. كما يُطهِّر الماءُ دنَسَ الثوب ونجاسته. وبيْنَ الثياب والقلوب مناسَبةٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ؛ ولذلك تدُلُّ ثِياب المرء في المنام على قلبه وحاله. ويؤثِّر كلٌّ منهما في الآخَر؛ ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب، وجلود السِّباع لِما تؤثِّر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع، وتأثير القلب والنفْس في الثياب أمرٌ خفيٌّ يعرفُه أهلُ البصائر من نظافتها، ودَنَسها، ورائحتها، وبهجتها، وكسفتها، حتى إنَّ ثوب البَرِّ لَيُعرَفُ من ثوب الفاجر، وليسَا عليهما.

وقد جمَع النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الورَع كلَّه في كلمة واحِدة، فقال: «من حُسنِ إسْلامِ المرءِ ترْكُهُ ما لا يَعْنيه»(٢)، فهذا يعُمُّ الترْكَ لِما لا يَعْني من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش"(٣)، فبيَّنَ ارتباطَ الخُلق بالورع، وكيف أنَّ حديث: «من حُسنِ إسْلام المرءِ ترْكُه ما لا يَعْنيه»، والذي يقولُ عنه: إنَّه أجمَعَ ما قيل في الورَع كان جُلَّ ما فيه أخلاقٌ.

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٢٣٤- ٢٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٥٥٨)، أبواب الزهد، رقم: (٢٣١٧)، وصحَّحه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٩٦- ٩٧)، رقم: (٢٨٧٩).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٢٣٥- ٢٣٦).

وقال عن البِر: عن النوَّاس بن سَمعانَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: «سألْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن البِر والإثم؟ فقال: البرُّ حُسنُ الخُلُق، والإثمُ ما حاكَ في صَدرِكَ وكرِهْتَ أنْ يطَّلِعَ عليه الناسُ»[1]، فقابل البِرَّ بالإثم، وأخبر: أنَّ البِرَّ حُسنُ الخُلق. والإثم: حَوَّاز الصُّدور. وهذا يدُلُّ على أنَّ حُسن الخُلق: هو الدِّينُ كلُّه. وهو حقائقُ الإيمان، وشرائعُ الإسلام؛ ولهذا قابَلَه بالإثم[2].

وذكَر عن بعض الأخلاق أنها تمثِّلُ جزءًا من الدِّين، فقال عن الصبر: "وهو نِصفُ الإيمان؛ فإنَّ الإيمانَ نصفانِ: نِصفٌ صبرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ"[3].

وبيَّن مكانةَ الخُلق في الدِّين من خلال الحديث عن خُلق النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الوارد في القرآن، فقال: "قال الله تعالى لنبيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[القلم: ٤].

قال ابنُ عبَّاس ومجاهد: لَعَلى دِينٍ عظيمٍ، لا دِينَ أحبُّ إليَّ ولا أرْضى عندي منه، وهو دِينُ الإسلام. وقال الحسنُ رَضيَ اللهُ عنه: هو آداب القُرآن. وقال قَتادة: هو ما كان يأمُر به مِن أمرِ الله، ويَنْهى عنه مِن نَهيِ الله. والمعنى: إنَّكَ لَعَلى الخُلُق الذي آثَرَكَ الله به في القرآن"[4].

فبيَّن من خلال التفسيرات التي ذكَرَها مركزيَّةَ الأخلاق في الدِّين، بل كون الأخلاق تعبيرًا عن الدِّين كله، كما في تفسير ابن عباس ومُجاهِد.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٠)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، رقم: (٢٥٥٣).

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٢٧- ٢٨).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٤٤٥).

(٤) المرجع السابق (٣/ ٢٤).

المطلب الثالث: منهج ابن القيِّم في التأصيل الشرعي للأخلاق

كان من منهج ابن القيِّم في عِنايته بالأخلاق تأصيلُه الشرعي لها؛ فقد سرَد جملةً من الآثار في تأصيل الأخلاق[1]، وأهميتها، ومنها:

١. حديث النبي ﷺ «**البرَّ: هو حُسن الخُلق**»[2].

٢. حديث النبي ﷺ «**خِيارُكم: أحاسنُكم أخلاقًا**»[3].

٣. عن أبي الدَّرداءِ رَضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «**ما مِن شيءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمِن يومَ القِيامة، من حُسن الخُلق، وإنَّ الله تعالى لَيُبغضُ الفاحشَ البَذيءَ**»[4].

٤. عن أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنه «أن رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُئلَ عن أكثر ما يُدخِلُ الناسَ الجنَّةَ؟ فقال: تَقْوى الله، وحُسن الخُلق. وسُئلَ عن أكثر ما يُدخِلُ الناسَ النارَ؟ فقال: **الفمُ والفَرجُ**»[5].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٢٧- ٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٠)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، رقم: (٢٥٥٣)، عن النواس بن سمعان رَضيَ اللهُ عنه.

(٣) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٤)، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، رقم: (٦٠٣٥)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨١٠)، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه صلى الله عليه وسلم، رقم: (٢٣٢١)، عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٣٦٢)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حُسن الخُلق، رقم: (٢٠٠٢)، وصححه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٧)، رقم: (٢٦٣٩).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه سنن الترمذي (٤/ ٣٦٣)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حُسن الخُلق، رقم: (٢٠٠٤)، وصحَّحه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٣١٨)، رقم: =

٥. عن عائشة -رضي الله عنها- عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «**إنَّ مِن أكملِ المؤمنين إيمانًا: أحسنَهم خُلقًا، وخيارُكم: خيارُكم لِنسائِهم**»[(١)].

٦. عن عائشةَ-رضي الله عنها- عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «**إن المؤمنَ لَيُدرِكُ بحُسن خُلُقه درجةَ الصائم القائم**»[(٢)].

٧. عن ابن عُمَرَ -رَضيَ الله عنهما- عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «**أنا زَعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنَّة لِمَن ترَكَ المِراءَ وإنْ كان مُحِقًّا، وببيتٍ في وسَطِ الجنَّة لِمَن ترَكَ الكذبَ وإنْ كان مازحًا، وببيتٍ في أعْلى الجنَّة لِمَن حسُنَ خُلُقُه**»[(٣)].

وعلَّق عليه بقوله: "فجعَل البيتَ العُلويَّ جزاءً لأعْلى المقامات الثلاثة وهي حُسنُ الخُلق، والأوسط لأوسطها، وهو ترْكُ الكذب، والأدْنى لأدْناها وهو تركُ المِماراة وإنْ كان معه حقٌّ، ولا ريبَ أنَّ حُسنَ الخُلق مُشتمِلٌ على هذا كله"[(٤)].

٨. عن جابرٍ رَضيَ اللهُ عنه، عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «**إنَّ من أحبِّكم إليَّ**

= (١٧١٩).

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٦٣٦)، كتاب النكاح، باب حُسن معاشرة النساء، رقم: (١٩٧٨)، وصححه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٤٠٩)، رقم: (١٩٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢٥٢)، كتاب الأدب، باب في حُسن الخُلق، رقم: (٤٧٩٨)، وصحَّحه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٨).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٢٥٣)، كتاب الأدب، باب في حُسن الخُلق، رقم: (٤٨٠٠)، وصحَّحه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٣٠٦).

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٠).

وأقربِكم منّي مجلسًا يومَ القِيامة: أحاسنَكم أخلاقًا، وإنَّ مِن أبغضِكم إليَّ وأبعدِكم منّي يومَ القِيامةِ: الثَّرْثارون، والمتشدِّقون، والمتفيهِقون. قالوا: يا رسولَ الله، قد عَلِمْنا الثرثارون والمتشدِّقون، فما المتفيهِقون؟ **قال: المتكبِّرون**»[1].

٩. عن النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: «سألتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن البِرِّ والإثمِ؟ فقال: **البرُّ حُسنُ الخُلُق، والإثمُ ما حاك في صَدرِكَ وكرِهْتَ أنْ يطَّلِعَ عليه الناسُ**»[2].

وعلَّق عليه ابن القيِّم بقوله: "فقابَلَ البرَّ بالإثم، وأخبَرَ: أنَّ البرَّ حُسنُ الخُلُق، والإثم: حوَّاز الصدور، وهذا يدُلُّ على أنَّ حُسنَ الخُلق هو الدِّينُ كلُّه، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام؛ ولهذا قابَلَه بالإثم وفي حديثٍ آخَر «البر: ما اطمأنَّت إليه النَّفْس، والإثم ما حاك في الصَّدر»[3]، وقد فُسِّر حُسنُ الخُلق بأنه البرُّ، فدلَّ على أنَّ حُسن الخُلق: طُمأنينةُ النَّفْس والقلب والإثم حوَّاز الصدور، وما حاك فيها، واسترابتْ به، وهذا غيرُ حُسن الخُلق وسُوئه في عُرف كثير من الناس، كما سيأتي."[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٣٧٠)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم: (٢٠١٨)، وصحَّحه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٠٢)، رقم: (٢٨٩٧).

(٢) سبق تخريجه (ص: ١٧) من هذا البحث.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ٥٣٣)، مسند الشاميين، حديث وابصة بن معبد الأسدي نزل الرقة، رقم: (١٨٠٠٦)، والدارمي في سننه (٣/ ١٦٤٩)، كتاب البيوع، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، عن وابصة الأسدي رَضيَ اللهُ عنه، وصححه الهيثمي في: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ١٧٥)، رقم: (٨١٣).

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٢٧- ٢٨).

وعادةُ ابن القيِّم أنْ يَعتني بأنواع الأخلاق في ذِكر أدلَّتها وذِكرها الأنواع التي جاءت عليها في القرآن؛ فعلى سبيل المثال استقصى ما ورَد في القرآن من أنواع الصبر، وسرَدَ ستةَ عشرَ نوعًا، واستدلَّ لكل نوع بعدَّة شواهد(١).

واستشهد في عدَّة مواطنَ من القرآن بصور أدب الأنبياء والصالحين مع الله(٢).

وفي أكثرَ من موطن يستشهد ابن القيِّم بما ورد في القرآن أو سُنَّة النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو صحابته الكرام.

من ذلك لَمَّا ذكَرَ مَشهَدَ الجهاد باعتباره أحدَ مشاهد تحمُّل أذى الخَلْق، فقال: "**مشهد الجهاد**، وهو أنْ يشهد تولُّد أذى الناس له من جِهادِه في سبيل الله، وأمْرِهم بالمعروف، ونَهيِهم عن المنكَر، وإقامة دِين الله، وإعْلاء كلماته.

وصاحب هذا المقام: قد اشترى اللهُ منه نفْسَه ومالَه وعِرضَه بأعظم الثمن؛ فإنْ أراد أنْ يُسلَّمَ إليه الثمن فلْيُسلمْ هو السِّلعةَ ليستحقَّ ثمَنها، فلا

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢/ ٤٤٥- ٤٤٩)؛ إذ عدده في ستة عشر موضعًا، من أهمها: الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، الثاني: النهي عن ضده كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[آل عمران: ١٧] الآية، الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦]، الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، ليست معية عامة. وهي معية العلم والإحاطة. كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦]، الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر".

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٠- ٣٢).

حقَّ له على مَن آذاه، ولا شيءَ له قِبَلَه، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايُع؛ فإنه قد وجب أجرُه على الله.

وهذا ثابتٌ بالنصِّ وإجماع الصحابةِ رَضيَ اللهُ عنهم؛ ولهذا منَع النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المهاجرين من سُكنى مكَّة -أعزَّها الله- ولم يُردَّ على أحدٍ منهم دارَه ولا مالَه الذي أخَذه الكفَّارُ، ولم يُضمِّنْهم دِيةَ مَن قَتلوه في سبيل الله.

ولَمَّا عزَم الصِّدِّيقُ رَضيَ اللهُ عنه على تضمين أهل الردَّة ما أتْلَفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال له عمرُ بن الخطاب -بمشهَد من الصحابة رَضيَ اللهُ عنهم-: تلك دِماءٌ وأموالٌ ذهبَتْ في الله، وأُجورها على الله، ولا دِيةَ لشَهيد، فأصْفَق[1] الصحابةُ على قول عُمر، ووافقَه عليه الصِّدِّيقُ.

فمَن قام لله حتى أُوذيَ في الله: حرَّمَ اللهُ عليه الانتقامَ، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]"[2].

وقال في السياق نفْسه: "المشهد العاشر: **مشهد الأُسوة**، وهو مشهَد شريف لطيف جدًّا؛ فإنَّ العاقل اللبيب يرضَى أنْ يكونَ له أُسوةٌ برُسل الله، وأنبيائه، وأوليائه، وخاصَّته من خَلقه؛ فإنهم أشدُّ الخَلق امتحانًا بالناس، وأذى الناس إليهم أسرعُ من السيل في الحدور، ويَكفي تدبُّرُ قصص الأنبياء -عليهم السلام- مع أممِهم، وشأن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأذى أعدائه له بما لم يُؤذِه من قبله، وقد قال له وَرقةُ بن نوفلٍ: لَتُكَذَّبَنَّ وَلَتُخْرَجَنَّ وَلَتُؤْذَيَنَّ.. وقال له: ما جاء أحدٌ بِمِثل

---

(١) أي: أطبقوا عليه واجتمعوا. ينظر تعليق المحقِّق المرجع السابق (٣/ ٥٥- ٥٦).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٥٥- ٥٦).

ما جئتَ به إلا عودِيَ[1]. وهذا مُستمِرٌّ في ورثتِه، كما كان في مورِّثهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

أفلا يرضى العبدُ أنْ يكون له أسوةٌ بخيار خَلْق الله، وخواصِّ عباده: الأمثل فالأمثل؟!

ومَن أحبَّ معرفة ذلك فلْيقِفْ على مِحن العلماء، وأذى الجُهَّال لهم، وقد صنَّف في ذلك ابنُ عبد البَرِّ كتابًا سمَّاه مِحن العلماء"[2].

وقال في الجود بالعِلم باعتباره أحدَ مراتب الجود: "سأل الصحابةُ ﵃ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «**هو الطَّهورُ ماؤُهُ، الحِلُّ مَيْتتُه**»[3]، فأجابهم عن سؤالهم، وجاد عليهم بما لعلَّهم في بعضِ الأحيان إليه أحوجُ مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحُكم نبَّهَهم على علَّته وحِكمته، كما سألوه عن بَيع الرُّطَب بالتَّمر؟ فقال: «**أينقُصُ الرطبُ إذا جفَّ؟ قالوا: نعمْ. قال: فلا إذنْ**»[4]، ولم يكنْ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٧)، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، رقم: (٣)، ومسلم في صحيحه (١/ ١٤١)، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: (١٦٠)، عن عائشة –رضي الله عنها.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٥٨).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (١/ ٢١)، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، رقم: (٨٣)، عن أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنه، وصححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٥٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ٧٦١)، كتاب التجارات، باب بيع الرطب بالتمر، رقم: (٢٢٦٤)، وأبو داود في سننه (٣/ ٢٥١)، كتاب البيوع، باب في التمر بالتمر، رقم: (٣٣٥٩)، عن سعد بن أبي وقاص رَضيَ اللهُ عنه. وصححه الحاكم في المستدرك ووافقه الذهبي (٢/ ٤٤).

يَخْفى عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نقصانُ الرطب بجفافه، ولكن تَبَّهَهم على علَّة الحُكم، وهذا كثيرٌ جدًّا في أجوبته صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مثل قولِه: «**إنْ بِعْتَ من أخيكَ ثمرةً، فأصابَتْها جائحةٌ، فلا يحِلُّ لكَ أن تأخُذَ من مال أخيكَ شيئًا، بمَ يأخُذُ أحدُكم مالَ أخيه بغير حقٍّ؟**»[1] وفي لفظ: «**أرأيتَ إنْ منَعَ اللهُ الثمرةَ، بمَ يأخُذُ أحدُكم مالَ أخيه بغير حقٍّ؟**»[2]، فصرَّح بالعلَّة التي يحرُم لأجْلها إلزامُه بالثمن، وهي منعُ اللهِ الثمرةَ التي ليس للمشتري فيها صُنعٌ"[3].

فلمْ يترُكْ في حديثه عن خُلق الجود التأصيلَ من السُّنة النبويَّة لهذا الخُلق، وبيَّنَ أمثلتَه فيها.

ردُّ التأصيل الصُّوفي للأخلاق

في مقابل التأصيل الشرعي للأخلاق الذي اعْتَنى به ابنُ القيِّم؛ فإنَّ من منهجه الردَّ على المتصوِّفة في نَظَرهم للأخْلاق الإنسانية والتعامُل معها، فقال: "«وقد رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أبا دُجانةَ يتبختَرُ بينَ الصَّفَّين، فقال: **إنها لمِشْيةٌ يُبغضُها اللهُ، إلَّا في مثل هذا الموضِعِ**»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١١٩٠)، كتاب المساقاة، باب وضع الجوائح، رقم: (١٥٥٤)، عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٧٧)، كتاب البيوع، باب إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها، ثم أصابته عاهة فهو من البائع، رقم: (٢١٩٨)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١١٩٠)، كتاب المساقاة، باب وضع الجوائح، رقم: (١٥٥٥)، عن أنس بن مالك رَضيَ اللهُ عنه.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٧- ٨).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١٠٤)، رقم: (٦٥٠٨)، عن أبي دُجانة سِمَاكُ بن خَرَشَة، وضعَّفه الهيثمي في: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ١٠٩).

فانظُرْ كيف خلَّى مجرى هذه الصِّفة، وهذا الخُلق يجري في أحسَن مواضِعه...، فانظُر كيف صارت الصفةُ المذمومةُ عبوديَّةً؟ وكيف استحال القاطعُ موصلًا؟ وتهذيب الأخلاق يتيسَّر بطريق الرياضات والمجاهدات والخَلَوات: هيهاتَ هيهاتَ! إنَّما يوقِعُه ذلك في الآفات، والشُّبُهات، والضَّلالات؛ فإنَّ تزكيةَ النفوس مُسلَّمٌ إلى الرسل، وإنما بعَثَهم الله لهذه التزكية وولَّاهم إيَّاها، وجعَلَها على أيديهم دعوةً، وتعليمًا، وبيانًا، وإرْشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا، فهُمُ المبعوثون لعلاج نفوس الأمم؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

وتزكيةُ النفوس: أصعبُ مِن علاج الأبدان وأشَدُّ، فمن زكَّى نفسَه بالرياضة والمجاهدة والخَلْوة، التي لم يجئْ بها الرسلُ فهو كالمريض الذي عالجَ نفْسَه برأيِه، وأين يقعُ رأيُه من معرفة الطبيب؟! فالرسلُ أطباءُ القلوب؛ فلا سبيلَ إلى تزكيتها وصلاحها إلَّا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، واللهُ المستعانُ"(١).

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٤٢- ٤٦).

المبحث الثاني: منهج ابن القيم في تصنيف مجالات الأخلاق وبيان أصولها وأنواعها

المطلب الأوَّل: منهج ابن القيِّم في تصنيف مجالات الأخلاق

من منهج ابن القيِّم أنَّه وضَعَ في كتابه منزلةً كاملةً عن الأدب، ولم يَكتفِ بشرح كلام الهَرَوي، بل قدَّم له، وأفاض بما يَزيد على ثلاثة أضعاف ما شرَح به كلام الهَرَوي، والذي هو موضوعُ كتاب "مدارج السالكين"؛ ممَّا يُبيِّن أهميةَ موضوع الأدب عنده، الذي يُقابِلُ مصطلحَ الأخلاق أو يتقاطَع معه في جُلِّ مباحثِه.

صدَّر ابنُ القيِّم الكلامَ على منزلة الأدب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾[التحريم: ٦]، وقال: "قال ابنُ عبَّاس وغيرُه: أدِّبوهم وعلِّموهم[١].

وهذه اللفظةُ مؤذِنةٌ بالاجتماع؛ فالأدبُ: اجتماعُ خِصال الخير في العَبد"[٢].

وعرَّف الأدب بقوله: "وعلمُ الأدب: هو عِلمُ إصلاحِ اللِّسانِ والخِطابِ، وإصابةِ مواقِعه، وتَحسينِ ألفاظِه، وصِيانتِه عن الخطأ والخَلَل، وهو شُعبةٌ من الأدب العامِّ"[٣].

وقال في إشارة لعِظَم موضوع الأدب: "والأدبُ هو الدِّينُ كلُّه؛ فإنَّ سَتْرَ العورة من الأدب، والوضوءِ وغُسل الجنابة من الأدب، والتطهُّر من الخَبَث من الأدب، حتى يقِفَ بيْن يدي اللهِ طاهرًا؛ ولهذا كانوا يَستحِبُّونَ أن يتجمَّلَ الرجلُ في صلاته

---

(١) انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، للفيروزآبادي (ص: ٤٧٧).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ١٤٠).

(٣) المرجع السابق (٣/ ١٤٠).

للوقوف بين يدي ربِّه"[1]، وأطال في ذِكر مثل هذه المواطن في الصلاة.

قسَّم ابن القيِّم الأدبَ إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: أدب مع الله سبحانه:

وقال عنه: " فالأدبُ مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانةُ معاملته أن يشوبَها بنَقيصة.

الثاني: صيانةُ قلبه أنْ يَلتفتَ إلى غيره.

الثالث: صيانةُ إرادته أن تتعلَّق بما يَمقتُكَ عليه"[2].

وذكَر تعاريف عديدة للسلف عن الأدَب مع الله[3].

واستشهَد في عِدَّة مواطنَ في القرآن بصُور أدب الأنبياء والصالحين مع الله تعالَى[4].

وما ذكَر ما ذكَره الصوفيةُ عن آية: ﴿مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧]، وكيف استَدَلُّوا بها على كمال أدب النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع ربه في أثناءَ حادثة الإسراء والمعراج[5].

ثم ذكَر مواطنَ من القُرآن والسُّنة عن أحكام الصلاة، وبيَّن دَلالتَها على الأدب مع الله سبحانه[6].

---

(١) المرجع السابق (٣/ ١٥٣).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ١٤٠- ١٤١).

(٣) انظر: المرجع السابق (٣/ ١٤١- ١٤٤).

(٤) انظر: المرجع السابق (٣/ ١٤٥- ١٤٨).

(٥) انظر: المرجع السابق (٣/ ١٥٠- ١٥٣).

(٦) انظر: المرجع السابق (٣/ ١٥٣- ١٥٤).

القسم الثاني: أدب مع رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وشرعه

قال عنه: "وأمَّا الأدبُ مع الرسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فالقرآنُ مملوءٌ به.

فرأسُ الأدب معه: كمالُ التسليم له، والانقيادُ لأمره، وتلَقِّي خبره بالقَبول والتصديق، دونَ أن يُحمِّلَه مُعارضةَ خيالٍ باطلٍ يُسمِّيه معقولًا، أو يُحمِّلَه شُبهةً أو شكًّا، أو يقدِّمَ عليه آراءَ الرجال، وزِبالات أذهانهم، فيوحِّدُه بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذْعان"[1].

وذكَر صُورًا عِدَّةً للأدب معه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

القسم الثالث: أدب مع خَلْقه

تحدَّث عن معناه وكونه مراتبَ فقال: "وأما الأدبُ مع الخَلق: فهو معاملتُهم -على اختلاف مراتبهم- بما يَليق بهم؛ فلكلٍّ مرتبةُ أدبٍ، والمراتبُ فيها أدبٌ خاصٌّ، فمع الوالدين: أدبٌ خاصٌّ، وللأب منهما: أدبٌ هو أخَصُّ به، ومع العالِم: أدبٌ آخَر، ومع السُّلطان: أدبٌ يَليق به، وله مع الأقْران أدبٌ يليقُ بهم، ومع الأجانب: أدبٌ غير أدبه مع أصحابه وذوي أُنسه، ومع الضيف: أدبٌ غير أدبه مع أهل بيته"[3].

وبيَّن تقسيمَه لكلِّ حالٍ ما يُناسبها: "ولكل حالٍ أدبٌ: فللأكل آدابٌ، وللشُّرب آدابٌ، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آدابٌ، وللبول آدابٌ، وللكلام آدابٌ، وللسكوت والاستماع آدابٌ"[4].

---

(١) المرجع السابق (٣/ ١٥٧).

(٢) انظر: المرجع السابق (٣/ ١٥٩- ١٦٣).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ١٦١).

(٤) المرجع السابق (٣/ ١٦٢).

ثم تَطرَّق إلى أثر الأدب الإيجابي وأثره السلبي لمن قلَّ أدبُه: "وأدبُ المرء: عنوانُ سعادته وفلاحه. وقلةُ أدبه: عنوانُ شقاوته وبواره.

فما استُجلِبَ خيرُ الدُّنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجلِبَ حرمانُهما بمثل قلة الأدب.

فانظُر إلى الأدب مع الوالِدَين: كيف نجَّى صاحبَه من حَبْس الغار حين أطبقتْ عليهم الصخرةُ؟ والإخلالُ به مع الأم - تأويلًا وإقبالًا على الصلاة - كيف امتُحِنَ صاحبُه بهدم صومعته، وضَرْب الناس له، ورَمْيه بالفاحشة؟

وتأمَّل أحوالَ كل شقيٍّ ومُغترٍّ ومُدبِرٍ: كيف تجدُ قلةَ الأدب هي التي ساقَتْه إلى الحرمان؟

وانظُر قلةَ أدب عوفٍ مع خالد: كيف حرَمَه السَّلَبَ بعد أن برَدَ بيديه؟

وانظُر أدبَ الصِّدِّيق رَضيَ اللهُ عنه مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الصلاة: أنْ يتقدَّم بينَ يديه، فقال: ما كان ينبغي لابن أبي قُحافةَ أنْ يتقدَّمَ بينَ يديْ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كيف أوْرَثَه مقامَه والإمامةَ بالأمَّة بعدَه؟ فكان ذلك التأخُّر إلى خلفه - وقد أومأ إليه: أن اثبتْ مكانك - جمزًا وسعيًا إلى قُدَّام؟ بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قُدَّام تنقطِع فيها أعناقُ المطيِّ"(١).

(١) المرجع السابق (٣/ ١٦٢- ١٦٣).

المطلب الثاني: منهج ابن القيم في بيان أصول الأخلاق الحسنة والمذمومة

من منهج ابن القيِّم في تَصنيف الأخلاق أنْ جعَلَ لها أصولًا تجمَع الأخلاقَ عامَّةً حسنَها وذميمَها، مع عدم إهماله للكلام على جملة من الأخلاق بشكل مُفصَّل، وإنْ لم تكنْ من الأصول.

أركان الأخلاق الحسنة:

ذكَر ابن القيِّم أركانًا أربعةً للأخلاق الحسنة، وبيَّن كلَّ خُلق منها، كيف أنه يجمَع أخلاقًا كثيرة تحته، فقال: "وحُسن الخُلق يقوم على أربعة أركانٍ، لا يُتَصوَّرُ قيامُ ساقه إلا عليها: الصبر، والعفَّة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمِلُه على الاحتمال وكَظْم الغَيْظ، وكَفِّ الأذى، والحِلم، والأناة، والرِّفق، وعدم الطَّيْش والعَجَلة.

والعِفَّة: تحمِلُه على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمِلُه على الحياء، وهو رأسُ كل خيرٍ، وتمنَعُه من الفَحْشاء، والبُخل، والكَذِب، والغِيبة، والنَّميمة.

والشجاعة: تحمِلُه على عِزَّة النفس، وإيثار معالي الأخْلاق والشِّيَم، وعلى البَذْل والنَّدى الذي هو شجاعةُ النفْس وقوَّتها على إخْراج المحبوب ومُفارَقته، وتحمِلُه على كَظْم الغَيْظ والحِلم؛ فإنه بقوَّة نفْسه وشَجاعتها يُمسِك عِنانها، ويَكبَحها بلِجامها عن النَّزْغ والبَطْش، كما قال النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «ليس الشديدُ بالصُّرَعة، إنما الشديدُ الذي يملِكُ نفْسَه عندَ الغضَب»[1]،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٨)، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم: (٦١١٤)، عن أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنه.

وهو حقيقةُ الشجاعة، وهي مَلَكة يَقتدِرُ بها العبدُ على قَهْر خَصْمه.

والعدل: يحمِلُه على اعتدال أخْلاقه، وتوسُّطه فيها بين طرفَيِ الإفْراط والتفريط، فيحمِلُه على خُلق الجود والسَّخاء الذي هو توسُّطٌ بينَ الذل والقِحَة، وعلى خُلق الشجاعة، الذي هو توسُّطٌ بينَ الجُبن والتهوُّر، وعلى خُلق الحِلم الذي هو توسُّطٌ بينَ الغضب والمهانة وسقوط النفْس.

ومنشأُ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة"(١).

أركان الأخلاق الذميمة:

لم يقتصر ابن القيّم على بيان أركان الأخلاق الحسَنة، وإنَّما بيَّنَ أركانَ الأخلاق الذميمة، وبيَّنَ كلَّ خُلق منها، كيف أنه يجمَعُ أخلاقًا كثيرةً تحتَه، فقال: "منشأُ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤُها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يُريه الحسَنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسَن، والكمالَ نقصًا والنقصَ كمالًا.

والظلم: يحمِلُه على وَضْع الشيء في غير موضِعه، فيغضَب في موضِع الرِّضا، ويَرْضى في موضِع الغضَب، ويجهَل في موضِع الأناة، ويَبخَل في موضِع البَذل، ويبذُل في موضِع البُخل، ويُحجِم في موضِع الإقْدام، ويُقدِم في موضِع الإحْجام، ويَلين في موضِع الشدَّة، ويشتَدُّ في موضِع اللِّين، ويتواضَع في موضِع العِزَّة، ويتكَبَّر في موضِع التواضُع.

والشهوة: تحمِلُه على الحرص، والشُّح، والبُخل، وعدم العفَّة، والنُّهْمة،

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣١- ٣٢).

والجَشَع، والذُّل، والدناءات كلِّها.

والغضب: يحمِلُه على الكِبر، والحِقد، والحَسد، والعُدْوان، والسَّفَه"[1].

وكما هو منهج ابن القيّم في ذِكْر جوامع الأمور وقواعدها التي ترجِع إليها بيَّن أنَّ هذه الأركانَ الأربعة للأخلاق الذميمة ترجِع إلى أصلَين، فقال: "مِلاكُ هذه الأربعة أصْلان: إفراطُ النفْس في الضعف، وإفراطُها في القوَّة.

فيتولَّد من إفْراطها في الضعف: المهانةُ والبُخلُ، والخِسَّةُ واللُّؤم، والذلُّ والحِرصُ، والشُّحُّ، وسَفسافُ الأمور والأخْلاق.

ويتولَّدُ من إفْراطها في القوَّة: الظُّلم، والغَضب، والحِدَّة، والفُحش، والطَّيْش"[2].

توالُد الأخلاق من بعضها:

أشار ابنُ القيِّم إلى عَلاقة الأخلاق فيما بينَها، فبيَّنَ أنَّ كلَّ خُلُقين يتركَّب من بينهما خُلُق من أخلاق مذمومة، أو من أخلاق حميدة، وقال: "يتولَّد من تزوُّج أحد الخُلُقين بالآخَر أولاد غية كثيرون؛ فإنَّ النفْس قد تجمَعُ قوةً وضعفًا، فيكون صاحبُها أجبرَ الناس إذا قدَر، وأذلَّهم إذا قُهِر، ظالِمًا عَنوفًا جبَّارًا، فإذا قُهِر صار أذلَّ من امرأةٍ، جبانًا عن القوي، جريئًا على الضعيف. فالأخلاق الذميمة: يولِّد بعضُها بعضًا، كما أنَّ الأخلاق الحميدة: يولِّد بعضُها بعضًا"[3].

وسَط الخُلق المحمود وطرفاه الذميمان:

ذكَر ابنُ القيّم قاعِدةً مُهمَّةً، ألَا وهي الوسَطُ المحمودُ والطرفان الذميمان،

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٢- ٣٣).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٣٣).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٣- ٣٤).

وهذا وإنْ كان موجودًا في كلِّ شيء، فقد تواطأ الناسُ على تطبيقه في كثيرٍ من جوانب حياتهم، إلَّا أنَّه في الأخلاق أوضحُ تطبيقًا، وأخطرُ أثرًا؛ فقد أطنَبَ ابن القيِّم في بيان هذه القاعدة في الأخلاق، وذكَر أمثلة كثيرة أسرُدُها لأهميتها: "وكل خُلُق محمود مُكتنَف بخُلُقين ذميمين، وهو وسَطٌ بينهما، وطرفاه خُلُقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنِفُه خُلقَا البُخل والتَّبْذير، والتواضُع: الذي يكتنِفُه خُلقَا الذلِّ والمهانة، والكِبر والعُلو.

فإنَّ النفْس متى انحرَفَت عن التوسُّط انحرَفَت إلى أحد الخُلُقين الذميمين ولا بدَّ، فإذا انحرَفَت عن خُلُق التواضُع انحرَفَت إما إلى كبرٍ وعُلوٍّ، وإما إلى ذُلٍّ ومهانةٍ وحقارةٍ، وإذا انحرَفَت عن خُلق الحياء انحرَفَت إما إلى قِحةٍ وجُرأةٍ، وإما إلى عَجزٍ وخَورٍ ومهانةٍ، بحيث يطمَعُ في نفْسه عَدوُّه، ويفوتُه كثيرٌ من مصالحه، ويزعُمُ أنَّ الحاملَ له على ذلك الحياءُ. وإنما هو المهانةُ والعَجزُ، وموتُ النفْس.

وكذلك إذا انحرَفَت عن خُلق الصبر المحمود انحرَفَت إما إلى جَزَع وهَلَع وجَشَع وتسَخُّط، وإما إلى غِلظة كَبِد، وقَسْوة قَلْب، وتحجُّر طَبْع. كما قال بعضهم:

تَبْكي علينا ولا نَبْكي على أَحَد فنحنُ أغلَظُ أكْبادًا منَ الإبِلِ

وإذا انحرَفَت عن خُلُق الحِلم انحرَفَت إما إلى الطَّيْش والتَّرَف والحِدَّة والخِفَّة، وإمَّا إلى الذُّل والمهانة والحَقارة، ففرَّق بيْنَ مَن حِلمُه حِلمُ ذُلٍّ ومَهانةٍ وحقارةٍ وعجزٍ، وبيْنَ مَن حِلمُه حِلمُ اقْتِدارٍ وعِزَّةٍ وشَرفٍ. كما قيل:

كلُّ حِلمٍ أتى بغيرِ اقْتِدارٍ حُجَّةُ لاجئٍ إليها اللِّئامُ

وإذا انحرَفَت عن خُلق الأناة والرِّفق انحرَفَت: إمَّا إلى عَجَلة وطَيْش وعُنف، وإمَّا إلى تَفْريط وإضاعة، والرِّفق والأناة بينَهما، وإذا انحرَفَت عن خُلق

العِزَّة التي وهَبَها اللهُ للمؤمنين، انحرَفَت إمَّا إلى كبرٍ، وإمَّا إلى ذلٍّ، والعِزَّةُ المحمودةُ بينَهما. وإذا انحرَفَت عن خُلق الشجاعة انحرَفَت إمَّا إلى تهوُّر وإقْدام غير محمود، وإمَّا إلى جُبن وتأخُّر مذموم. وإذا انحرَفَت عن خُلق المنافسة في المراتب العالية والغِبْطة انحرَفَت إمَّا إلى حسدٍ، وإمَّا إلى مهانةٍ، وعجزٍ وذلٍّ ورضا بالدُّون. وإذا انحرَفَت عن القناعة انحرَفَت إمَّا إلى حِرصٍ وكَلَب، وإمَّا إلى خِسَّة ومهانةٍ وإضاعةٍ. وإذا انحرَفَت عن خُلُق الرحمة انحرَفَت إمَّا إلى قسوةٍ، وإمَّا إلى ضعفِ قلبٍ وجُبنِ نفْسٍ، كمَن لا يُقدِم على ذبْح شاةٍ، ولا إقامة حَدٍّ، وتأديب وَلَدٍ، ويزعُم أنَّ الرحمةَ تحمِلُه على ذلك، وقد ذبَحَ أرحَمُ الخَلْق صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيدِه في موضِعٍ واحدٍ ثلاثًا وستِّين بَدَنةً، وقطَعَ الأيديَ من الرِّجال والنساء، وضرَبَ الأعناقَ، وأقامَ الحدودَ، ورجَمَ بالحجارةِ حتى ماتَ المرجومُ، وكان أرحَمَ خَلْق اللهِ على الإطْلاق وأرأفَهم.

وكذلك طلاقةُ الوجه، والبِشْر المحمود؛ فإنَّه وسَطٌ بيْن التعبيس والتقطيب وتَصْعير الخَدِّ وطَي البِشْر عن البَشَر، وبيْن الاسترسال بذلك مع كلِّ أحدٍ، بحيث يذهب الهَيْبة، ويُزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أنَّ الانحراف الأول يوقِع الوَحْشة والبِغْضة، والنُّفْرة في قلوب الخَلْق. وصاحب الخُلُق الوَسَط: مَهيبٌ محبوبٌ، عزيزٌ جانبُه، حبيبٌ لقاؤُه، وفي صِفة نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَن رآه بديهةً هابَه، ومَن خالَطَه عِشرةً أحبَّه"(١).

لم يَعتنِ ابن القيِّم بالأصول العامَّة للأخلاق فقط، كما في أصول الأخلاق وغيرها من المواطِن، وإنما كان من منهجه في دراسة الأخلاق أنِ اعْتَنى ببعض الأخلاق،

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٤- ٣٦).

وأفاض في ذِكْرها وفي ذِكْر تقسيماتها وأنواعها، مع أنَّ موضوع كتابه هو الرقائق؛ إذ هو شرحٌ لكتاب الهَرَوي (منازل السائرين)، وفصَّل الكلامَ عند كلامه في بعض المنازل التي تُمَثِّل أخلاقًا إسلاميَّة، سأذْكُر أبرزها، وأبرَز ما تناوَله ابن القيِّم فيها.

أولًا: الصبر: قال في منزلته من الدِّين: "الصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمانَ لمن لا صبرَ له، كما أنه لا جسَدَ لمن لا رأسَ له، وقال عُمرُ بن الخطاب رَضيَ اللهُ عنه: خيرُ عيشٍ أدْرَكْناه بالصبرِ، وأخبَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحديث الصحيح أنه ضياءٌ. وقال: «مَن يَتصبَّرْ يُصبِّرْه اللهُ»[1].

وفي الحديث الصحيح: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمرَه كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إنْ أصابته سرَّاءُ شكَرَ، فكان خيرًا له، وإنْ أصابَتْه ضرَّاءُ صبرَ، فكان خيرًا له**»[2].

وقال للمرأةِ السوداء التي كانتْ تُصرَع، فسألَتْه أنْ يدعوَ لها: «**إنْ شئتِ صبرتِ ولكِ الجنةُ، وإنْ شئتِ دعوْتُ اللهَ أن يعافيَكِ، فقالتْ: إني أتكشَّفُ فادْعُ اللهَ ألَّا أتكشَّفَ. فدَعا لها**»[3]"[4]، وغيرها من الأدلَّة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٣)، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم: (١٤٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضيَ اللهُ عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٥)، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم: (٢٩٩٩)، عن صهيب رَضيَ اللهُ عنه.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٦)، كتاب المرضى، باب فضل مَن يصرع من الريح، رقم: (٥٦٥٢)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يُصيبه، رقم: (٢٥٧٦)، عن ابن عباس رَضيَ اللهُ عنهما.

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٤٤٩- ٤٥٠).

وبعد ذِكْره لتعريفه ذكَرَ أنواعه، وأنها ثلاثة أنواعٍ، فقال: "صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على امتحان الله"(١).

وعقَد فصلًا ذكَرَ فيه أنواعَ الصبر باعتبارٍ آخَرَ وهو تعلُّقه بالله سبحانه، فقال: "هو على ثلاثة أنواع: صبرٌ بالله، وصبرٌ لله، وصبرٌ مع الله.

فالأول: صبرُ الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبِّرُ، وأن صبر العبد بربه لا بنفْسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[النحل: ١٢٧]، يعني: إنْ لم يُصبِّرْكَ هو لم تَصبِرْ.

والثاني: الصبرُ لله، وهو أن يكون الباعثُ له على الصبر محبةَ الله، وإرادةَ وجهه، والتقرُّبَ إليه، لا لإظهاره قوَّة النفْس، والاستحماد إلى الخَلق، وغير ذلك من الأعراض.

والثالث: الصبرُ مع الله، وهو دَوَران العبد مع مراد الله الدِّيني منه، ومع أحْكامه الدينية، صابرًا نفسَه معها، سائرًا بسَيْرها، مُقيمًا بإقامتها، يتوَجَّه معها أين توجَّهت ركائبُها، وينزِل معها أين استقلَّت مضارِبُها"(٢).

وسرَدَ جملةً ممَّا قيل في الصبر، ثم ذكَر مراتب الصابرين، فقال: "وقيل: مراتب الصبر خمسة: صابرٌ، ومصطبرٌ، ومتصبِّرٌ، وصبورٌ، وصبَّارٌ، فالصابرُ: أعمُّها، والمصطبرُ: المكتسِبُ الصبر المليء به، والمتصبِّرُ: المتكلِّفُ حامل نفْسه عليه، والصبورُ: العظيمُ الصبرِ الذي صبرُه أشدُّ من صبر غيره، والصبَّار:

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٤٥١).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٤٥٣).

الكثيرُ الصبر، فهذا في القَدْر والكَم، والذي قبله في الوَصْف والكَيْف"[١]، ثم ذكَر جملةً من الأدلة والآثار على الصبر[٢].

ثانيًا: الإيثار: استدَلَّ له ابن القيّم بقولِ الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: ٩].

وبيَّن أنَّ الإيثار ضد الشُّح، وذكَر قول النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «**إياكم والشُّحَّ، فإن الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قبلَكم، أمرَهم بالبُخل فبخِلوا، وأمرَهم بالقَطيعة فقطَعوا**»[٣].

وقال: "فالبخيل: مَن أجاب داعيَ الشُّح، والمؤْثِر: مَن أجابَ داعيَ الجود.

كذلك السخاءُ عمَّا في أيدي الناس هو السَّخاء، وهو أفضلُ من سَخاء البَذْل.

قال عبدُ الله بنُ المبارَك: سخاء النفْس عمَّا في أيدي الناس أفضلُ من سخاء النفْس بالبذل.

وهذا المنزِل: هو منزِلُ الجود والسخاء والإحسان.

وسُمِّيَ بمنزل الإيثار؛ لأنه أعْلى مراتبه، فإن المراتب ثلاثة.

إحداها: ألَّا يَنقُصَه البذل، ولا يصعُب عليه، فهو منزلة السخاء.

الثانية: أنْ يعطي الأكثرَ، ويُبقي له شيئًا، أو يُبقي مثل ما أعْطى. فهو الجود.

الثالثة: أنْ يُؤثِرَ غيرَه بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبةُ الإيثار، وعكسها

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٤٥٦).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٤٥٦- ٤٦١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٦)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم: (٢٥٧٨)، عن جابر بن عبد الله رَضيَ اللهُ عنهما.

الأَثَرة، وهو استئثارُه عن أخيه بما هو محتاجٌ إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للأنصار رَضيَ اللهُ عنهم: «**إنَّكم ستَلْقَوْنَ بَعْدي أَثَرةً، فاصْبِروا حتى تلقَوْني على الحَوْض**»[1]، والأنصار: هم الذين وصَفهمُ اللهُ بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: ٩]، فوصَفَهم بأعْلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفًا"[2].

وذكَر مراتب الجُود العَشْر، وهي: الجود بالنفْس، والجود بالرِّياسة، والجود براحته ورفاهيته وإجمام نفْسه، والجود بالعِلم وبذله، وقال عنه: "وهو من أعْلى مراتب الجود، والجود به أفضَلُ من الجود بالمال؛ لأنَّ العِلم أشرَف من المال"[3]، والجود بالنفع بالجاه، والجود بنفْع البدن على اختلاف أنواعه، والجود بالعِرض، والجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء، والجود بالخُلق والبِشر والبَسطة، والجود بترْكه ما في أيْدي الناس عليهم[4].

وقال في ختام سَرْده لهذه المراتب: "ولكلِّ مرتبةٍ من مراتب الجود مزيدٌ وتأثيرٌ خاصٌّ في القلب والحال، واللهُ سبحانه قد ضمِنَ المزيدَ للجَواد، والإتلافَ للمُمسِك"[5].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٩٨)، كتاب الجزية، باب ما أقطع النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من البحرين، رقم: (٣١٦٣)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٤٧٤)، كتاب الإمارة، باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم، رقم: (١٨٤٥)، عن أسيد بن حضير رَضيَ اللهُ عنه.

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣- ٤).

(٣) انظر: المرجع السابق (٣/ ٦).

(٤) انظر: المرجع السابق (٣/ ١١).

(٥) المرجع السابق (٣/ ١٢).

ثالثًا: الفُتوَّة: صدَّر الكلام عنها ابن القيِّم بقوله: "هذه المنزلة حقيقتُها هي منزلةُ الإحسان إلى الناس، وكفُّ الأذى عنهم، واحتمالُ أذاهم، فهي استعمالُ حُسن الخُلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجةُ حُسن الخُلق واستعماله"[١].

وبيَّن الفرقَ بيْنها وبيْن المروءة، فقال: "المروءةُ أعَمُّ منها، فالفُتوَّةُ نوعٌ من أنواع المروءة؛ فإنَّ المروءةَ استعمالُ ما يجُمُل ويَزين ممَّا هو مختصٌّ بالعبد، أو مُتعدٍّ إلى غيره، وتَرْك ما يُدنِّس ويَشين ممَّا هو مختصٌّ أيضًا به، أو متعلقٌ بغيره.

والفُتوَّة إنما هي استعمالُ الأخلاق الكريمة مع الخَلْق.

فهي ثلاثة منازل: منزلة التخَلُّق وحُسن الخُلق، ومنزلة الفُتوَّة، ومنزلة المروءة"[٢]

ثم استنبَط ابنُ القيِّم كعادته تأصيلَها في الوَحْيَين، فقال: "وهذه منزلةٌ شريفةٌ، لم تعبِّر عنها الشريعةُ باسم الفُتوَّة، بل عبَّرت عنها باسم مكارم الأخلاق، كما في حديث يوسف بن محمد بن المنكَدِر، عن أبيه، عن جابر رَضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: «إنَّ اللهَ بَعَثَني لأتمِّمَ مكارمَ الأخْلاقِ، ومحاسنَ الأفْعالِ»[٣] "[٤].

وبيَّن أنَّ أصلَ الفُتوَّة من الفتى، وهو الشابُّ الحديثُ السنِّ، واستدَلَّ بقولِ

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٨٦).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٨٦).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٧٤)، رقم: (٦٨٩٥)، باب الميم، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٥٣)، رقم: (٧٦١٠)، باب صلة الأرحام. وضعَّفه الهيثميُّ في مجمع الفوائد ومنبع الزوائد (٨/ ١٨٨)، وضعَّفه الألباني كذلك في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيِّئ في الأُمَّة (٥/ ١٠٤).

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٨٦).

الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣] وغيرها من الأدلة، وذكَر جملةً من مَقولات السَّلف عنها[١].

رابعًا: المروءة: عرَّفها ابن القيِّم بقوله: "المروءةُ فُعولةٌ من لفظ المرْء، كالفُتوَّة من الفتى، والإنسانيَّة من الإنسان؛ ولهذا كان حقيقتها: اتِّصاف النفْس بصفات الإنسان التي فارَقَ بها الحيوانَ البهيمَ، والشيطانَ الرجيمَ"[٢].

وذكَر أنَّ: "في النَّفس ثلاثة دواعٍ متجاذِبة: داعٍ يدْعوها إلى الإنصاف بأخْلاق الشيطان: من الكِبر، والحَسد...، وداعٍ يدعوها إلى أخْلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة.

وداعٍ يدعوها إلى أخْلاق الملَك: من الإحسان، والنُّصح.

فحقيقة المروءة: بُغضُ ذَيْنكَ الداعِيَين، وإجابةُ الداعي الثالث، وقلَّة المروءة وعدمها: هو الاسترسالُ مع ذَيْنكَ الداعِيَين، والتوجُّه لدعوتهما أين كانت"[٣].

وذكَر تعريفَ الفقهاء المشهور في حدِّها: "استعمالُ ما يُجمِّل العبدَ ويُزيِّنه، وتَرْك ما يُدنِّسه ويَشينه"[٤].

وسرَدَ مَقولات السلف في تعريفها؛ فمن ذلك:

"المروءةُ استعمالُ كل خُلقٍ حَسَنٍ، واجتنابُ كل خُلقٍ قبيحٍ"[٥].

"حقيقةُ المروءة تجنُّبُ الدَّنايا والرذائل من الأقوال، والأخْلاق، والأعمال"[١].

---

(١) انظر: المرجع السابق (٣/ ٨٧- ٩٢).

(٢) المرجع السابق (٣/ ١٠٤).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ١٠٤- ١٠٥).

(٤) المرجع السابق (٣/ ١٠٥).

(٥) المرجع السابق (٣/ ١٠٥).

وغيرها ممَّا يُبين أصالةَ منزلة المروءة في علم الأخلاق.

وذَكَرَ لها ثلاثَ درجاتٍ:

الدرجة الأولى: مروءةُ المرء مع نفْسه، وهي أن يحملَها قَسْرًا على ما يُجمِّل ويَزين، وتَرْك ما يُدنِّس ويَشين.

الدرجة الثانية: المروءةُ مع الخَلق، بأن يستعمِلَ معهم شروطَ الأدب والحياء، والخُلق الجميل، ولا يُظهر لهم ما يَكرهُه هو من غيره لنفْسه.

الدرجة الثالثة: المروءةُ مع الحق سبحانه، بالاستحياء من نَظَره إليكَ، واطِّلاعه عليكَ في كل لحظة ونفَس، وإصلاح عيوب نفْسك جَهدَ الإمكان[2].

---

(1) المرجع السابق (٣/ ١٠٥).

(٢) انظر: المرجع السابق (٣/ ١٠٦- ١٠٧).

المطلب الثالث: منهج ابن القيِّم في بيان الأخلاق الحيوانية

من منهج القرآن الكريم التشبيهُ بالحيوانات بجامعٍ مُشترَك يجمَع المشبَّه (الإنسان) بالمشبَّه به (نوع من الحيوان)؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، وقال سُبحانه وتعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ [الجمعة: ٥]، وغيرها من المواطن.

وعلى هذا المنهج القرآني ذكَر ابنُ القيِّم في سِياق كلامه على مَشاهِد الخَلْق في المعصية، والتي بلغت ثلاثة عشرَ مَشهدًا، أوَّل مشهَد منها -وهو مشهَد الحيوانية وقضاء الشهوة- قسَّم فيه نفوسَ الناس، وربَط كلَّ نوع منه بنوع من نفوس الحيوانات بما يتوافَق بينهما من الطِّباع، فقال: "مشهَدُ الحيوانية وقضاء الشهوة، فمشهد الجُهَّال الذين لا فرقَ بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة، ونُطق اللسان، ليس همُّهم إلا مجرَّد نَيْل الشهوة بأي طريق أفضَت إليها، فهؤلاء نفوسهم نفوسٌ حيوانيةٌ لم تترقِ عنها إلى درجة الإنسانية، فضلًا عن درجة الملائكة، فهؤلاء حالهم أخَسُّ من أنْ تذكَر، وهم في أحوالهم مُتفاوِتون بحسب تفاوُت الحيوانات التي

هُم على أخْلاقها وطِباعها"[1].

ثم ذكَر جملةً من النفوس، وربَطَها بالحيوانات المناسِبة لها، وإنْ كان جُلُّ ما ذكَر كان للنفْس ذات الأخلاق الذميمة، فقال: "**فمنهم مَن نفْسه كَلبيَّة،** لو صادَف جيفةً تُشبعُ ألفَ كلبٍ؛ لوقَعَ عليها، وحماها من سائر الكلاب، ونبَحَ كلَّ كلبٍ يَدْنو منها، فلا تقربها الكلابُ إلَّا على كُره منه وغَلَبة، ولا يَسمح لكَلبٍ بشيء منها، وهمُّه شِبَعُ بطنه من أي طعام اتَّفق: مَيْتة أو مُذَكًّى، خبيث أو طيب، ولا يَستَحي من قبيح، إن تحمِل عليه يلهَث أو تتركه يلهَث، إن أطعمْتَه بصبَصَ بذَنَبه، ودار حولَكَ، وإن منعتَه هرَّكَ ونبحَكَ.

ومنهم مَن نفْسه حِماريَّة لم تُخلَق إلا للكَدِّ والعَلَف، كلما زيدَ في عَلَفه زيد في كَدِّه، أبكم الحيوان وأقله بصيرةً، ولهذا مثَّل الله ﷻ به مَن حمَّلَه كتابَه فلم يحمِلْه معرفةً ولا فقهًا ولا عملًا، ومثَّل بالكلب عالِمَ السُّوء الذي آتاه اللهُ آياتِه فانسلَخ منها، وأخلَد إلى الأرض، واتَّبَع هواه، وفي هذين المثَلَين أسرارٌ عظيمةٌ، ليس هذا موضع ذِكرها.

ومنهم مَن نفْسُه سَبُعيَّة غَضَبيَّة، همَّتُه العُدوانُ على الناس، وقهرُهم بما وصلتْ إليه قُدرتُه، طبيعتُه تَتَقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السَّبُع لما يصدُر منه.

ومنهم مَن نفْسُه فأْريَّة فاسقٌ بطبعه، مُفسِدٌ لِما جاوَرَه، تَسبيحه بلسان الحال: سبحانَ مَن خلَقَه للفساد.

ومنهم مَن نفْسُه على نُفوس ذوات السُّموم والحُمات كالحيَّة والعقرب وغيرهما، وهذا الضربُ هو الذي يُؤْذي بعينه، فيُدخِلُ الرجُل القبرَ والجمَلَ القِدرَ، والعينُ

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٤).

وحدَها لم تفعَل شيئًا، وإنَّما النفْس الخبيثةُ السُّميَّةُ تكيَّفت بكيفيَّة غَضبيَّة مع شدَّة حَسد وإعْجاب، وقابَلَت المِعينَ على غِرَّة منه وغَفلة، وهو أعزَلُ من سلاحه، فلدغَتْه كالحيَّة التي تنظُر إلى موضعٍ مكشوفٍ من بدن الإنسان فتنهشُه، فإما عطبٌ وإما أذًى؛ ولهذا لا يتوقَّف أذى العائن على الرؤية والمشاهدة، بل إذا وُصِف له الشيءُ الغائبُ عنه وصَلَ إليه أذاه، والذنب لجهل المِعين وغَفلته وغِرَّته عن حَمْل سلاحه كلَّ وقت، فالعائنُ لا يؤثِّر في شاكي السلاح كالحيَّة إذا قابلَتْ درعًا سابغًا على جميع البدن، ليس فيه موضعٌ مكشوفٌ، فحقٌّ على مَن أراد حِفظَ نفْسه وحمايتَها ألَّا يزالَ متدرعًا متحصنًا لابسًا أداةَ الحرب مواظبًا على أوراد التعوُّذات والتحصينات النبويَّة التي في القرآن، والتي في السُّنة"[١].

ثم أكمَل: "ومِن الناس مَن طبعُه **طبعُ خِنزير** يمُرُّ بالطيِّبات فلا يَلْوي عليها، فإذا قام الإنسانُ عن رَجيعه قمَّه، وهكذا كثيرٌ من الناس يسمَعُ منكَ ويَرى من المحاسن أضعافَ أضعافَ المساوئِ، فلا يحفَظُها، ولا ينقُلُها، ولا تُناسِبُه، فإذا رأى سَقْطةً أو كلمةً عَوراءَ وجَدَ بُغيتَه، وما يُناسبُها، فجعلَها فاكهتَه ونقَلَه.

ومنهم مَن هو على طبيعة **الطاوس**، ليس له إلا التطوُّسُ والتزيُّنُ بالريش، وليس وراءَ ذلك من شيء.

ومنهم مَن هو على طبيعة **الجمَل** أحقَد الحيوان، وأغْلَظه كبدًا.

ومنهم مَن هو على طبيعة **الدُّب** أبْكَم خَبيث، وعلى طبيعة القِرد"[٢].

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٤- ٦).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٩- ١٠).

ثم أشار إشارةً سريعةً إلى طِباعٍ حميدة في الحيوانات، فقال: "وأحمَدُ طبائع الحيوانات **طبائعُ الخَيل** التي هي أشرَفُ الحيوانات نفوسًا، وأكرمُهَا طبعًا، **وكذلك الغَنَم**"[1].

وذكَر أثَرَ تأثُّر الإنسان بهذه الحيوانات بسبب الأُلفة أو التَّغذي عليها، فقال: "وكلُّ مَن ألِفَ ضربًا من ضُروب هذه الحيوانات اكتسَبَ من طبعه وخُلقه، فإنْ تغَذَّى بلحمه كان الشبَهُ أقْوى؛ فإنَّ الغاذيَ شبيهٌ بالمغتَذَى؛ ولهذا حرَّم الله أكلَ لحوم السِّباع وجوارح الطير؛ لِما تورِثُ آكلَها من شَبَهِ نفوسها بها"[2].

وربَط هذه الأشباهَ بأخلاق هذه الحيوانات برموز تفسير الرُّؤى، فقال: "وعلى هذا الشَّبَه اعتمادُ أهل التعبير للرُّؤْيا في رؤية هذه الحيوانات في المنام عند الإنسان، وفي داره، أو أنها تُحاربه، وهو كما اعتَمَدوه، وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائعُ كثيرةٌ، فكان تأويلُها مُطابقًا لأقوام على طباع تلك الحيوانات، وقد رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قصَّة أُحُد بقرًا تُنحَرُ[3]، فكان مَن أُصيب من المؤمنين بنحر الكفَّار، فإن البقَر أنفَعُ الحيوانات للأرض، وبها صلاحُها وفلاحُها مع ما فيها من السَّكينة والمنافع والذِّلِّ بكسر الذال؛ فإنها ذَلول مُذَلَّلة مُنْقادة غير أبيَّة، والجواميس كبارهم

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ١٠).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٠).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٤١)، كتاب التعبير، باب إذا رأى بقرا تنحر، رقم: (٧٠٣٥)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٧٩)، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: (٢٢٧٢)، عن أبي موسى الأشعري رَضيَ اللهُ عنه.

ورؤساؤهم، رأى عُمرُ بن الخطاب كأن ديكًا نَقَره ثلاثَ نَقَرات، فكان طعن أبي لؤلؤة له، والديكُ رجلٌ أعجميٌّ شريرٌ[1]"[2].

***

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٧/ ٤٣٧)، رقم: (٣٧٠٦٢).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٨- ٩).

المبحث الثالث: منهج ابن القيم في بيان علاقة النفس بالأخلاق وطرق تهذيبها وبيان طرق التعامل مع أخلاق الناس

المطلب الأول: منهج ابن القيّم في بيان علاقة النفس بالأخلاق وأهمية تهذيبها

كان مِن منهج ابن القيّم في موضوع الأخلاق أنَّه أَوْلى عِنايةً كبيرةً لمعالجة النفوس وترويضها، وفي الوقت نفْسه استقرأَ أقوالَ المتكلِّمين في هذا الشأن من أرباب التصوُّف والسلوك، فبيَّن مرادَهم بعبارة النفْس، فقال: "المراد بالنفْس عند القوم: ما كان معلولًا من أوصاف العبد، مذمومًا من أخلاقه وأفعاله، سواءٌ كان ذلك كسبيًّا، أو خُلقيًّا، فهو شديدُ اللائمة لها"(١).

ثم بيَّنَ أنَّ هذا المعنى لدَيهم هو أحدُ التأويلَين، بمعنى النفْس اللَّوامة، فقال: "وهذا أحدُ التأويلَين في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ وعِكْرمةُ: تلومُ على الخير والشرِّ، ولا تصبِرُ على السَّرَّاء، ولا على الضَّرَّاء.

وقال قتادة: اللَّوَّامة هي الفاجرة.

وقال مجاهدٌ: تندَمُ على ما فات، وتقول: لو فعلتُ؟ ولو لم أفعَل؟

وقال الفَرَّاء: (ليس مِن نفْس برَّة ولا فاجرة إلَّا وهي تلوم نفْسَها، إنْ كانت عمِلتْ خيرًا قالتْ: هلَّا زدتُ؟ وإنْ عمِلتْ شرًّا قالت: لَيْتني لم أفعَلْ)(٢).

وقال الحسنُ: هي النفْس المؤمنة؛ إنَّ المؤمن -واللهِ- ما تراه إلا يلومُ نفْسَه: ما أردْت بكلمة كذا؟ ما أردْت بأكلةِ كذا؟ ما أردْت بكذا؟ ما أردْت

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٢١٤).

(٢) معاني القرآن، للفراء (٣/ ٢٠٨).

بكذا؟ وإنَّ الفاجر يَمْضي قدُمًا قدُمًا، ولا يُحاسِبُ نفْسَه ولا يُعاتِبُها.

وقال مقاتلٌ: هي النفْسُ الكافرة، تلوم نفْسَها في الآخِرة على ما فرَّطَت في أمر الله في الدنيا[1]"[2].

وذكَر قاعدةً مِن قواعد علماء السلوك في كون النفْس الآنِفة الذِّكْر لا يَعُدُّونها إلَّا حِجابًا بيْن العبد وبيْن ربه، فقال: "من قواعد القوم المجمَع عليها بينهم، التي اتَّفَقت كلمةُ أوَّلهم وآخِرهم، ومُحِقِّهم ومُبطِلهم عليها: أنَّ النفْس حجابٌ بين العبد وبين الله، وأنه لا يصِلُ إلى الله حتى يقطَعَ هذا الحجابَ، كما قال أبو يَزيد: رأيتُ ربَّ العِزَّة في المنام، فقلْتُ: يا ربِّ، كيف الطريقُ إليكَ؟ فقال: خَلِّ نفْسَكَ وتَعالَ"[3].

وشبَّهَ النفْس بتَشبيهٍ بَديعٍ ووصْفٍ ما يرِدُ عليها من إغْواء الشيطان ومُداوَلاته هذا العبد مع الشيطان حتى يظفَر بالفوز فقال: "فالنفْسُ جبلٌ عظيمٌ شاقٌّ في طريق السَّيْر إلى الله ﷻ، وكل سائرٍ لا طريقَ له إلا على ذلك الجبل، فلا بدَّ أن ينتهيَ إليه، ولكن منهم مَن هو شاقٌّ عليه، ومنهم مَن هو سهلٌ عليه، وإنه لَيَسيرٌ على مَن يسَّرَه اللهُ عليه.

وفي ذلك الجبَل أوديةٌ وشعوبٌ، وعَقَباتٌ ووُهودٌ، وشوكٌ وعوسجٌ، وعليقٌ وشبرقٌ، ولصوصٌ يقتطعون الطريقَ على السائرين، ولا سيما أهلُ الليل المدْلِجِين، فإذا لم يكنْ معهم عُدَد الإيمان، ومصابيح اليَقين تتَّقِدُ بزيت الإخْبات، وإلا تعلَّقت بهم تلك الموانع، وتشبَّثَت بهم تلك القواطع، وحالت

(١) تفسير البغوي (٨/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٢١٤- ٢١٥).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٢١٥).

بينهم وبين السَّيْر.

فإنَّ أكثرَ السائرين فيه رَجَعوا على أعقابهم لَمَّا عَجَزوا عن قطعه واقتحام عَقَباته، والشيطان على قلَّة ذلك الجبل يحذِّر الناس من صعوده وارتفاعه، ويخوِّفهم منه، فيتَّفِق مشقَّة الصعود وقعود ذلك المخوف على قلَّته، وضعف عزيمة السائر ونيَّته، فيتولَّد من ذلك الانقطاعُ والرجوعُ، والمعصومُ مَن عصَمه اللهُ.

وكلَّما رقِيَ السائرُ في ذلك الجبل اشتَدَّ به صياحُ القاطع، وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعَه وبلَغ قُلَّته؛ انقلبتْ تلك المخاوف كلُّهن أمانًا، وحينئذ يسهُل السَّيرُ، وتَزول عنه عوارضُ الطريق، ومَشقَّة عَقَباتها، ويرى طريقًا واسعًا آمنًا يُفْضي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلامُ، وفيه الإقامات قد أُعِدَّت لرَكْب الرحمن.

فبيْن العبد وبيْن السعادة والفلاح قوةُ عزيمةٍ، وصبرُ ساعةٍ، وشجاعةُ نفْسٍ، وثباتُ قلْبٍ، والفضلُ بيد الله يُؤْتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم"(١).

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٢١٥- ٢١٧).

المطلب الثاني: منهج ابن القيِّم في تصنيف الناس في معالجة الأخلاق وبيان الطريقة الصحيحة

تكلَّم ابنُ القيِّم عن موضوع مهمٍّ جدًّا في الأخلاق، ألَا وهو معالجةُ الأخلاق وتغييرها من السيِّئ إلى الحَسَن، ومن الحَسَن إلى الأحسَن.

وقد بيَّنَ صعوبةَ هذا الأمر، وكيف أنَّ كثيرًا من أهل الرياضات قد انثَنَتْ عزائمُهم، وتبدَّدت جهودُهم؛ لصعوبة ذلك ولعدم معرفة كيفيَّة التعامل الصحيحة مع الأخلاق بعدما تُقابل قوَّة الطبع، فقال: "أصعَبُ ما على الطبيعة الإنسانية: تغييرُ الأخلاق التي طُبِعت النفوسُ عليها، وأصحابُ الرياضات الصعبة، والمجاهَدات الشاقَّة، إنَّما عَمِلوا عليها، ولم يظفَرْ أكثرُهم بتبديلها، لكنَّ النفسَ اشتغلتْ بتلك الرياضات عن ظهور سُلطانها، فإذا جاء سلطانُ تلك الأخلاق وبرز: كسَرَ جيوشَ الرياضة وشتَّتها، واستَوْلى على مملكة الطبع"[1].

مثال واقعيٌ يبيِّن منهجية معالجة الأخلاق:

بنَى ابنُ القيِّم طريقتَه في معالجة الأخلاق على مبدأ عدم مخالفة الطبيعة، وعدم العمل على إزالة الأخلاق الذميمة، وأنَّ هذا أسرع وأنجع مِن طريقة مَن يرمي إلى إزالتها، وضرَب لهذا مثلًا حتى يُبينَ منهجيَّتَه تلك؛ فذكَر مثال النهر الذي اجتاحَ بلدةً، وكيف أنَّ الناس تقسَّموا إلى ثلاثة فِرَق، فقال: "نقدمُ قبلَ هذا مثلًا نضرِبه مطابقًا لِما نُريده، وهو: نهرٌ جارٍ في صَبَبه ومُنحدَره، ومُنتَهٍ إلى تغريق أرض وعُمران ودور، وأصحابها يعلَمون أنه لا ينتهي حتى يخربَ

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٦- ٣٧).

دورَهم، ويُتلف أراضيَهم وأموالَهم. فانقَسَموا ثلاث فِرَقٍ:

فرقة صرفتْ قواها وقوى أعمالها إلى سَكْره وحَبْسه وإيقافه، فلا تصنَعُ هذه الفرقةُ كبيرَ أمرٍ؛ فإنه يوشِكُ أن يجتمِعَ، ثم يحمِل على السَّكْر، فيكون إفسادُه وتخريبُه أعظَمَ.

وفرقة رأتْ هذه الحالة، وعلِمت أنه لا يُغني عنها شيئًا، فقالتْ: لا خلاصَ من محذوره إلا **بقطعه من أصل الينبوع،** فرامتْ قطعَه من أصْله، فتعذَّرَ عليها ذلك غايةَ التعذُّر، وأبَت الطبيعةُ النهريةُ عليهم ذلك أشدَّ الإباء، فهُم دائمًا في قَطْع الينبوع، وكلما سَدُّوه من موضِع نبَعَ من موضِع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعِمارات وغَرْس الأشجار.

فجاءت فِرقة ثالثة، خالفتْ رأيَ الفِرقتَين، وعلِموا أنهم قد ضاع عليهم كثيرٌ من مصالحهم، **فأخذوا في صَرْف ذلك النهر عن مَجْراه** المنتهي إلى العُمران، فصرَفوه إلى موضِعٍ ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضرَّرون به، فصرَفوه إلى أرضٍ قابلةٍ للنبات، وسقَوْها به، فأنبتَت أنواعَ العُشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانتْ هذه الفرقةُ هُم أصوبَ الفِرَق في شأن هذا النهر"(١).

قوَّتان محرِّكتان للأخلاق:

يرَى ابنُ القيِّم أنَّ مِن حِكمة الله أنْ ركَّب الإنسان من قوَّتين؛ غضبيَّة، وشهوانيَّة، وسمَّى الخيرةَ بالإراديَّة، ويرى أنَّ هاتين القوَّتين هما المحرِّكتان للأخلاق، فقال: "بقوَّة الشهوة والإرادة: يجذبُ المنافعَ إلى نفْسه، وبقوَّة الغضب يدفَع المضارَّ عنها، فإذا استعمل الشهوةَ في طلَبِ ما يحتاج إليه: تولَّد منها الحرصُ،

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٧- ٣٨).

وإذا استعمل الغضبَ في دَفْع المضرَّة عن نفْسه: تولَّد منه القوة والغَيْرة، فإذا عجَز عن ذلك الضارِّ أورَثَه قوةَ الحقد، وإنْ أعجَزَه وصولُ ما يحتاج إليه، ورأى غيرَه مُستبدًّا به أورَثَه الحسَدَ، فإنْ ظفِرَ به أورثْته شدَّةُ شهوته وإرادته خُلُقَ البُخل والشُّحِّ، وإن اشتَدَّ حرصُه وشهوتُه على الشيء، ولم يمكنْه تحصيلُه إلَّا بالقوَّة الغضبيَّة، فاستعمَلَها فيه: أورَثَه ذلك العدوانَ، والبغيَ والظلمَ، ومنه يتولَّد: الكِبر والفخر والخُيَلاء؛ فإنها أخلاقٌ متولدةٌ من بين قوَّتَيِ الشهوة والغضب، وتزوج أحدهما بصاحبه"[1].

عودة على مِثال الفرق الثلاث:

رجَع ابن القيِّم ليُبيِّنَ أنَّ النهر إنما هو مثالٌ لهاتين القوَّتين (الغضبية والشهوانية)، وبيَّن حالَ النفوس الجاهلة، وهي مَن أهملته حتى خرب عُمرانها، واستبدله بكل خراب، فقال بتشبيهٍ بديعٍ: "فالنهر مثالُ هاتين القوَّتين، وهو مُنصَبٌّ في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القلب وعُمرانه وحواصله، يخرِّبها ويُتلفها ولا بدَّ، فالنُّفوس الجاهلة الظالمة تركَتْه ومجراه، فخرَّب ديار الإيمان، وقلَع آثارَه، وهدَم عُمرانه، وأنبَتَ موضعَها كلَّ شجرة خبيثة، من حنظلٍ وضريعٍ وشوكٍ وزقومٍ، وهو الذي يأكله أهلُ النار يومَ القيامة يومَ المعاد"[2].

ثم بيَّن حالَ النفوس الزكيَّة، وأنهم انقسَموا كما انقسمت الفِرَق الثلاث، فقال: "وأما النفوسُ الزكيَّةُ الفاضلة: فإنَّها رأتْ ما يؤول إليه أمرُ هذا النهر، فافترَقوا ثلاث فِرَقٍ.

---

(١) المرجع السابق (٣/ ٣٨- ٣٩).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٣٩).

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخَلَوات والتمرينات: راموا قطعَه مِن ينبوعه، فأبتْ عليهم ذلك حكمةُ الله تعالى، وما طبَعَ عليه الجِبِلَّة البشريَّة، ولم تَنقَدْ له الطبيعةُ، فاشتدَّ القتالُ، ودام الحرب، وحَميَ الوَطيسُ، وصارت الحرب دُوَلًا وسِجالًا، **وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات**.

وفِرقة أعْرضوا عنها، وشَغلوا نفوسهم بالأعمال، ولم يُجيبوا دواعيَ تلك الصفات مع تخليتهم إيَّاها على مجراها، لكن لم يُمكِّنوا نهرَها من إفساد عُمرانهم، بل اشتغلوا بتحصين العُمران، وإحكام بنائه وأساسه، ورأَوْا أن ذلك النهر لا بدَّ أن يصِلَ إليه، فإذا وصلَ وصلَ إلى بناء محكَم فلم يهدِمْه، بل أخذ عنه يمينًا وشمالًا، فهؤلاء صرفوا قوةَ عزيمتهم وإرادتهم في العمارة، وإحكام البناء، وأولئك صرَفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفًا من هدم البناء.

فهذه الفرقة الثالثة: رأتْ أن هذه الصفات ما خُلِقتْ سُدًى ولا عبثًا، وأنها بمنزلة ماء يُسقى به الوردُ، والشوك، والثمار، والحطب، وأنها صوان وأصداف لجواهر مُنطوية عليها، وأن ما خاف منها أولئك هو نفْس سببِ الفلاح والظَّفَر، فرأَوْا أن الكِبر نهرٌ يُسقى به العلوُّ والفخرُ، والبطرُ والظلمُ والعدوانُ، ويُسقى به علوُّ الهمَّة، والأنَفة، والحميَّة، والمراغَمة لأعداء الله، وقهرهم والعلو عليهم، وهذه دُرَّة في صدفَته، فصرَفوا مجراه إلى هذا الغِراس، واستخرجوا هذه الدُّرَّة من صدفته، وأبقَوْه على حاله في نفوسهم، لكن استعملوه حيث يكون استعمالُهُ أنفَعَ..."[١].

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٣٩- ٤١)، وقد نقل مثالين بديعين تداولهما مع ابن تيمية: "وسألت يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن هذه المسألة، وقطع الآفات، والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها؟ فقال لي جملة كلامه: النفس مثل الباطوس – وهو جب =

ثم ختَم كلامَه بما يُبيِّن منهجَ المتصوِّفة في محاربة هذه الأخلاق، ومحاولة نَزْعها بدلًا من المنهجية التي تبَنَّاها، ألَا وهي تسييرها وتجييرها بما يخدُم الإنسان في الخير.[1].

والذي يظهَر أنَّ ابن القيِّم أهمَلَ الفرقةَ الأُولى التي تَكلَّم عنها، وكأنَّه استعاض عنها بما قال في الفِرقة الثانية، فجعَل الكلامَ عنهما واحدًا بجامع أنَّهما أرادَا معاكسةَ الطبيعة إمَّا بالسَّكْر، وإمَّا بقَطْع الينبوع من أصْله.

***

= القذر - كلما نبشته ظهر وخرج. ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه؛ فإنك لن تصل إلى قراره. وكلما نبشت شيئًا ظهر غيره، فقلتُ: سألتُ عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر. فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها: انقطع. ولم يمكنه السفر قط. ولكن لتكنْ همتُك المسيرَ، والإعراضَ عنها، وعدمَ الالتفات إليها. فإذا عرَضَ لك فيها ما يعوقُكَ عن المسير فاقتُلْه. ثم امضِ على سَيرِكَ. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًّا. وأثْنى على قائله".

(١) انظر: المرجع السابق (٣/ ٤٦)، وقد سبق بنصه من هذا البحث ص٢٢.

المطلب الثالث: منهج ابن القيِّم في طريقة التعامُل مع أذى الخَلْق

تكلَّم ابنُ القيِّم في منزلة الخُلق بكلامٍ بديعٍ عن المشاهد التي حَريٌّ بالعبد أنْ يمتثِلَها مقابلَ أذى الخَلْق وجنايتهم عليه، ولم يَكتفِ ابن القيِّم بما ذكَره الهَرَوي في كتابه عند الحديث عن مشهد القدر، وإنما أضاف عليها عشر مشاهد أُخرى، سأذكُرُها مختصرةً من كلامه.

المشهد الأول: "**مشهد القدر**، وأنَّ ما جرَى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره، فيراه كالتأذِّي بالحرِّ والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرِّياح، وانقطاع الأمطار؛ فإن الكلَّ أوجبته مشيئةُ الله...، وإذا شهِد هذا: استراحَ. وعلِم أنه كائنٌ لا محالةَ، فما للجَزَع منه وجهٌ.

المشهد الثاني: **مشهد الصبر**، فيشهده ويشهَد وجوبَه، وحُسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتَّب عليه من الغِبْطة والسرور، ويُخلِّصه من ندامة المقابلة والانتقام...

المشهد الثالث: **مشهد العفو والصفح والحلم**؛ فإنه متى شهِد ذلك وفضلَه وحلاوتَه وعزَّتَه: لم يعدِلْ عنه إلا لعشًى في بصيرته؛ فإنه «ما زاد اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا»[1] كما صحَّ ذلك عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ...

المشهد الرابع: **مشهد الرضا**، وهو فوق مشهد العفو والصفح، وهذا لا يكون إلَّا للنفوس المطمئنَّة، سيَّما إنْ كان ما أُصيبت به سببُه القيامُ لله، فإذا كان ما أُصيب به في الله، وفي مَرْضاته ومحبَّته: رَضِيَت بما نالها في الله...

المشهد الخامس: **مشهد الإحسان** وهو أرفعُ مما قبلَه، وهو أن يقابل إساءةَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١)، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم: (٢٥٨٨)، عن أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنه.

المسيء إليه بالإحسان. فيُحسن إليه كلما أساء هو إليه، ويُهوِّنُ هذا عليه علمُه بأنه قد ربِح عليه، وأنه قد أهْدى إليه حسناتِه، ومحاها من صحيفته، وأثبَتَها في صحيفة مَن أساء إليه، فينبغي لكَ أنْ تَشكُرَه، وتُحسِنَ إليه بما لا نسبةَ له إلى ما أحسَنَ به إليكَ...

المشهد السادس: **مشهد السلامة وبرد القلب**، وهذا مشهدٌ شريفٌ جدًّا لمن عرَفه، وذاق حلاوتَه، وهو ألَّا يشتغلَ قلبُه وسرُّه بما ناله من الأذى، وطلب الوصول إلى دَرْك ثأره، وشفاء نفْسه، بل يفرغ قلبُه من ذلك. ويرى أن سلامتَه وبردَه وخلوَّه منه أنفَعُ له وألذُّ وأطيبُ وأعوَنُ على مصالحه...

المشهد السابع: **مشهد الأمن**؛ فإنه إذا ترك المقابلةَ والانتقامَ: أمِنَ ما هو شرٌّ من ذلك، وإذا انتقم: واقعه الخوفُ ولا بدَّ، فإن ذلك يزرع العداوةَ، والعاقل لا يأمَنُ عدوَّه، ولو كان حقيرًا، فكم من حقيرٍ أرْدى عدوَّه الكبيرَ؟ فإذا غفَرَ، ولم ينتقمْ، ولم يقابلْ: أمِنَ من تولُّد العداوة، أو زيادتها...

المشهد الثامن: **مشهد الجِهاد**، وهو أنْ يشهَد تولُّد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمْرهم بالمعروف، ونَهْيهم عن المنكَر، وإقامة دين الله، وإعْلاء كلماته.

وصاحِب هذا المقام: قد اشترى اللهُ منه نفسَه ومالَه وعِرضَه بأعظم الثمن، فإن أراد أن يُسلَّمَ إليه الثمنُ فلْيُسلِّمْ هو السلعةَ ليستحقَّ ثمَنَها، فلا حقَّ له على مَن آذاه، ولا شيء له قِبَلَه، إن كان قد رَضيَ بعقد هذا التبايع؛ فإنه قد وجب أجرُه على الله...

المشهد التاسع: **مشهد النِّعمة**؛ وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمةَ الله عليه في أن جعَلَه مظلومًا يترقَّبُ النصرَ...

ومنها: أنْ يَشهد نعمةَ الله في التكفير بذلك من خطاياه؛ فإنه ما أصاب المؤمن هَمٌّ ولا غَمٌّ ولا أذًى إلا كفَّرَ اللهُ به من خطاياه... ومنها: أن يشهَد كونَ تلك البَليَّة أهونَ وأسهَلَ من غيرها؛ فإنه ما من محنةٍ إلا وفوقَها ما هو أقْوى منها وأمَرُّ... ومنها: توفيةُ أجرها وثوابها يومَ الفقر والفاقة...

المشهد العاشر: **مشهد الأُسوة**، وهو مشهدٌ شريفٌ لطيفٌ جدًّا، فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوةٌ برُسل الله، وأنبيائه وأوليائه، وخاصَّته من خَلقه...

المشهد الحادي عشر: مشهد **التوحيد**، وهو أجَلُّ المشاهد وأرفعُها، فإذا امتلأ قلبُه بمحبَّة الله، والإخلاص له، ومعاملته، وإيثار مَرْضاته، والتقرُّب إليه، وقرَّة العين به، والأُنس به، واطمأنَّ إليه، وسكَنَ إليه، واشتاق إلى لقائه، واتخذَه وليًّا دونَ مَن سواه، بحيث فوَّضَ إليه أمورَه كلَّها، ورَضيَ به، وبأقضيَتِه..."[1].

وقال ابنُ القيِّم في موطنٍ آخَرَ: "وأمَّا رؤيةُ فَضْل كلِّ ذي فضلٍ عليكَ فهو أنْ تراعيَ حقوق الناس فتؤديَها، ولا ترى أنَّ ما فعلوه من حُقوقِكَ عليهم، فلا تُعاوِضهم عليها؛ فإنَّ هذا من رُعونات النفس وحماقاتها، ولا تُطالبهم بحقوق نفْسكَ، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم، وتَنسى فضْلَ نفْسكَ.

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة -قدَّس الله رُوحَه- يقولُ: العارفُ لا يرَى له على أحد حقًّا، ولا يَشهد على غيره فضلًا؛ ولذلك لا يُعاتِب، ولا يُطالِب، ولا يُضارِب"[2].

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٥١- ٥٩).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٩٨).

خاتمة

فبعد استعراض ما تعلَّق بالأخلاق في كتاب "مدارج السالكين " لابن القيّم – رحمه الله تعالى–، الذي يُعَدُّ مِن أشهر كُتبه المِعْنيَّة بالرقائق والسلوك، ومن أفضل كُتُبه كذلك التي ناقشت مبحث الأخلاق باستفاضة؛ فإن البحث يخلُص إلى النتائج الآتية:

١. لم يضَع ابن القيّم تعريفًا محدَّدًا للأخلاق، وإنما انشغَل بذِكْر صورها، وأنواعها، وأدلتها، ونحو ذلك.

٢. يرى ابن القيم أنَّ من الخُلُق ما هو طبيعة وجِبِلَّة، ومنه ما هو مكتَسَب.

٣. جعل ابن القيِّم الأخلاق في المرتبة السابعة من مراتب الحياة التي ذَكَرها في منزلة الحياة، وكلما كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمَلَ؛ كانت حياتُه أقْوى وأتمَّ.

٤. علو مكانة الأخلاق من الدين عنده، حيث بيَّن ابن القيّم أن الدين كله خُلق.

٥. من منهج ابن القيِّم أنه وضَع في كتابه منزلةً كاملةً عن الأدب، مما يُبين أهميةَ موضوع الأدب عنده، والذي يقابل مصطلحَ الأخلاق، أو يتقاطَع معه في جُلِّ مباحثه.

٦. كان لابن القيِّم منهجٌ إبداعي في بيان الأخلاق الحيوانية؛ فقد أنزل أنواع أخلاق البشر على أخلاق الحيوانات.

٧. ذَكَرَ ابن القيّم أركانًا أربعةً للأخلاق الحسنة: الصبر، العفة، الشجاعة، العدل، وأركان الأخلاق الذميمة بناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

٨. من منهج ابن القيِّم في موضوع الأخلاق أنه أوْلى عنايةً كبيرةً لمعالجة النفوس وترويضها، ومعالجة الأخلاق وتغييرها وصعوبةَ هذا الأمر وانتقد طريقة بعض أرباب التصوف والسلوك في ذلك.

٩. ومن منهجه؛ بيان طريقة التعامُل مع أذى الخَلق ذكَرَ الكثير من المشاهد التي تُربي النفوس، مثل: القَدَر، العفو، الرضا، السلامة، وبرد القلب، الأمن، وغير ذلك، وفصَّل فيه كثيرًا.

وأما التوصيات فهي:

١. ضرورة الاستفادة من جهود علماء السلوك في مباحث الأخلاق تأصيلًا، ونقدًا.

٢. العناية بتراث ابن القيم لتأصيل مباحث الأخلاق، ومقارنة آرائه ببقية المعتنين بها من المتقدمين والمتأخرين.

٣. بناء موسوعة الأخلاق مستفادة مما كتبه ابن القيم للاستفادة منها في موضوع الأخلاق.

***

المراجع

١.ابن قيِّم الجوزية، آثاره، موارده، بكر أبو زيد، دار العاصمة، ط٢، ١٤٢٣هـ.
٢. الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم، ط٥، ١٤٢٠ - ١٩٩٩.
٣.البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق د. عبد الله التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٩هـ.
٤.التربية الأخلاقية الإسلامية، مقداد يالجن، دار عالم الكتب، الرياض، ط١.
٥.التعريفات، الشريف الجرجاني، المحقق: محمد باسل السود، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٦.تفسير البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
٧. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، جمعه: الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية – لبنان.
٨.الجامع لسيرة ابن القيم خلال ستة قرون، جمع وتحقيق علي العمران، دار عطاءات العلم، ط١، ١٤٤٢هـ.
٩.الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٥هـ.
١٠. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ — ١٩٩٥م.
١١. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، دار المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
١٢. سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
١٣. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا — بيروت.
١٤. سنن الترمذي، تحقيق: شاكر، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٩٥هـ.
١٥. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٦. صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٧. صحيح الجامع الصغير وزيادته، الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م.

١٨. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي — بيروت.

١٩. علم الأخلاق الإسلامية، مقداد يالجن محمد علي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر — الرياض، ط١: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ط٢: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٠. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت — لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٢١. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر — بيروت، ط٣ - ١٤١٤ هـ.

٢٢. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، تحقيق: علي العمران وآخرين، ط: عطاءات العلم، الرياض، ط٢، ١٤٤١هـ.

٢٣. مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٤. المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد — الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢٥. معاني القرآن، الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط١.

٢٦. مقاييس اللغة، ابن زكرياء، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٧. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط٤.

AlmrAjς

١. Abn qym̃ Aljwzyħ، ĀθArh، mwArdh، bkr Âbw zyd، dAr AlςASmħ، T٢١٤٢٣ ،h.

٢. AlÂxlAq AlǍslAmyħ wÂsshA، ςbd AlrHmn Hsn Hbnkħ، dAr Alqlm، T٥١٤٢٠ ، - ١٩٩٩.

٣. AlbdAyħ wAlnhAyħ، Abn kθyr، tHqyq d. ςbd Allh Altrky، dAr hjr، T١١٤١٩ ،h.

٤. Altrbyħ AlÂxlAqyħ AlǍslAmyħ، mqdAd yAljn، dAr ςAlm Alktb، AlryAD، T١.

٥. AltςryfAt، Alŝryf AljrjAny، AlmHqq: mHmd bAsl Alswd، AlnAŝr: dAr Alktb Alςlmyħ byrwt - lbnAn، T١١٤٠٣ ،h١٩٨٣ - -m.

٦. tfsyr Albγwy، tHqyq: mHmd ςbd Allh Alnmr، ςθmAn jmςh Dmyryħ، slymAn mslm AlHrŝ، dAr Tybħ llnŝr wAltwzyς، T٤١٤١٧ ، h١٩٩٧ - - m.

٧. tnwyr AlmqbAs mn tfsyr Abn ςbAs، jmςh: AlfyrwzĀbAdy، dAr Alktb Alςlmyħ - lbnAn.

٨. AljAmς lsyrħ Abn Alqym xlAl stħ qrwn، jmς wtHqyq ςly AlςmrAn، dAr ςTA'At Alςlm، T١١٤٤٢ ،h.

٩. Alðyl ςlŶ TbqAt AlHnAblħ، Abn rjb، tHqyq ςbd AlrHmn Alςθymyn، mktbħ AlςbykAn، T١١٤٢٥ ،h.

١٠. slslħ AlÂHAdyθ AlSHyHħ، AlÂlbAny، mktbħ AlmςArf llnŝr wAltwzyς، AlryAD، T١١٤١٥ ،h – ١٩٩٥m.

١١. slslħ AlÂHAdyθ AlDςyfħ wAlmwDwςħ wÂθrhA AlsyŶ fy AlÂmħ، AlÂlbAny، dAr AlmςArf، AlryAD، T١١٤١٢ ، h١٩٩٢ / - m.

١٢. snn Abn mAjh، tHqyq: mHmd fŵAd ςbd AlbAqy، AlnAŝr: dAr ǍHyA' Alktb Alςrbyħ - fySl ςysŶ AlbAby AlHlby.

١٣. snn Âby dAwd، tHqyq: mHmd mHyy Aldyn ςbd AlHmyd، AlnAŝr: Almktbħ AlςSryħ، SydA – byrwt.

١٤. snn Altrmðy، tHqyq: ŝAkr، mSTfŶ AlbAby AlHlby، mSr١٣٩٥ ،h.
١٥. SHyH AlbxAry، tHqyq: mHmd zhyr bn nASr AlnASr، dAr Twq AlnjAħ (mSwrħ ςn AlslTAnyħ bĂDAfħ trqym mHmd fŵAd ςbd AlbAqy)، T١ ، ١٤٢٢h-.
١٦. SHyH Altrγyb wAltrhyb، AlÂlbAny، mktbħ AlmςArf llnŝr wAltwzyς، AlryAD- T١١٤٢١ ، h٢٠٠٠ - - m.
١٧. SHyH AljAmς AlSγyr wzyAdth، AlÂlbAny، AlnAŝr: Almktb AlĂslAmy، T٢١٤٠٨ ،h – ١٩٨٨m.
١٨. SHyH mslm، tHqyq: mHmd fŵAd ςbd AlbAqy، AlnAŝr: dAr ĂHyA' AltrAθ Alςrby – byrwt.
١٩. ςlm AlÂxlAq AlĂslAmyħ، mqdAd yAljn mHmd ςly، dAr ςAlm Alktb llTbAςħ wAlnŝr – AlryAD، T١: ١٤١٣h١٩٩٢ - -m، T٢: ١٤٢٤h٢٠٠٣ - -m.
٢٠. AlqAmws AlmHyT، AlfyrwzĀbAdy، tHqyq: mktb tHqyq AltrAθ fy mŵssħ AlrsAlħ، bĂŝrAf: mHmd nςym Alςrqswsy، mŵssħ AlrsAlħ llTbAςħ wAlnŝr wAltwzyς، byrwt – lbnAn، T٨١٤٢٦ ، h٢٠٠٥ - - m.
٢١. lsAn Alςrb، Abn mnĎwr، dAr SAdr – byrwt، T٣ - ١٤١٤ h-.
٢٢. mdArj AlsAlkyn byn mnAzl ĂyAk nςbd wĂyAk nstςyn، Abn Alqym، tHqyq: ςly AlςmrAn wĀxryn، T: ςTA'At Alςlm، AlryAD، T٢١٤٤١ ،h.
٢٣. msnd ÂHmd، tHqyq: ŝςyb AlÂrnAŵwT، wςAdl mrŝd، wĀxrwn، ĂŝrAf: d. ςbd Allh bn ςbd AlmHsn Altrky، mŵssħ AlrsAlħ، T١١٤٢١ ، h٢٠٠١ - - m.
٢٤. AlmSnf fy AlÂHAdyθ wAlĀθAr، Abn Âby ŝybħ، tHqyq: kmAl ywsf AlHwt، mktbħ Alrŝd – AlryAD، T١١٤٠٩ ،h.
٢٥. mςAny AlqrĀn، AlfrA'، tHqyq: ÂHmd ywsf AlnjAty، wmHmd ςly AlnjAr، wςbd AlftAH ĂsmAςyl Alŝlby،

dAr AlmSryħ lltÂlyf wAltrjmħ، mSr، T١.
٢٦. mqAyys Allγħ، Abn zkryA'، tHqyq: ςbd AlslAm mHmd hArwn، dAr Alfkr، ςAm Alnŝr: ١٣٩٩h - - ١٩٧٩m.
٢٧. nDrħ Alnςym fy mkArm ÂxlAq Alrswl Alkrym، ςdd mn AlmxtSyn bĂŝrAf Alŝyx/ SAlH bn ςbd Allh bn Hmyd ĂmAm wxTyb AlHrm Almky، dAr Alwsylħ llnŝr wAltwzyς، jdħ، T٤.

***